من الطين إلى المجد

رحلة عبر الحضارة السومرية

بداية التاريخ

1

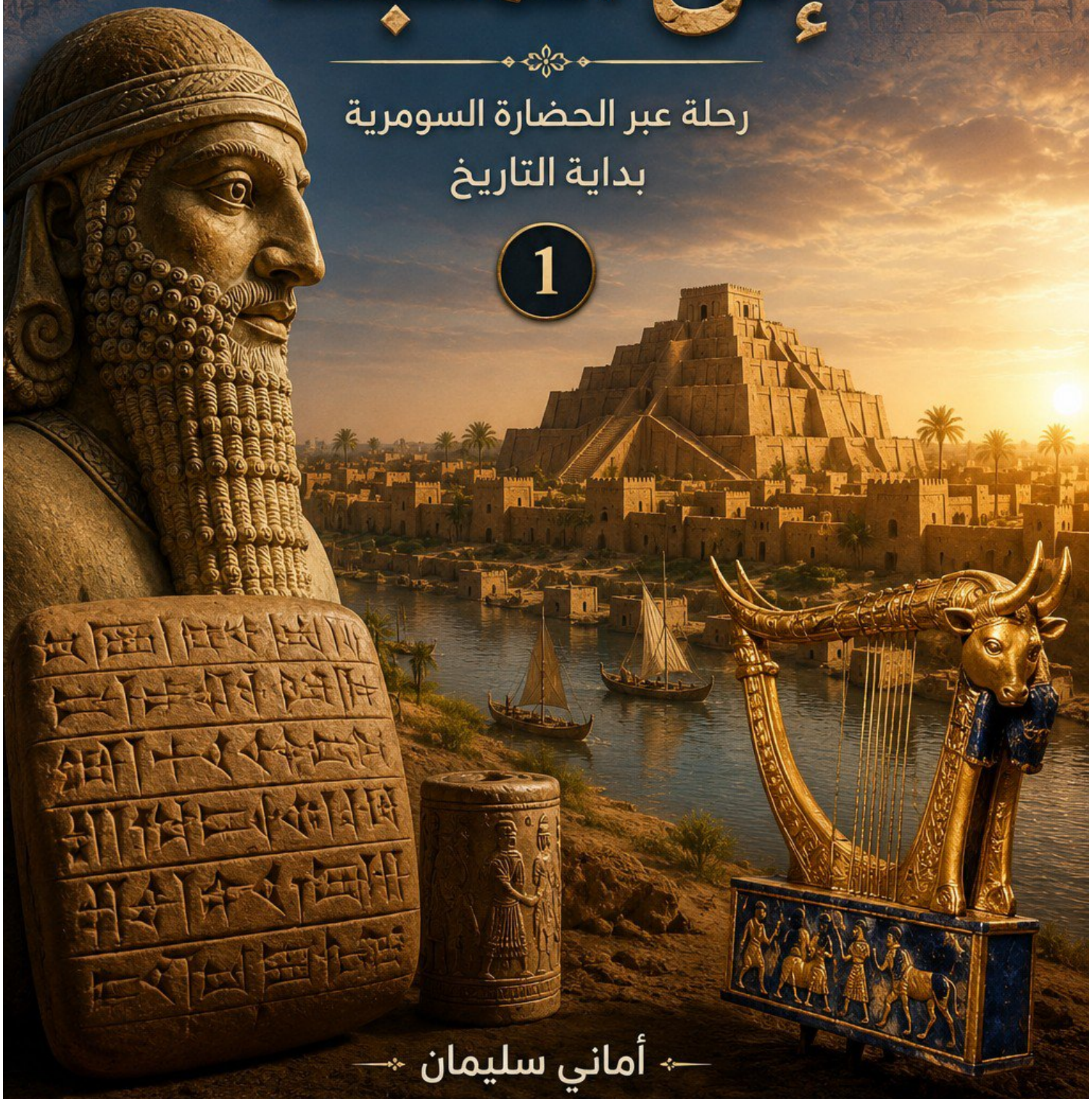

أماني سليمان

من الطين إلى المجد (١)

ملوك الحضارات وأساطير العالم القديم

حضارات بلاد الرافدين

الحضارة السومرية

إعداد و صياغة

أماني سليمان

من الطين إلى المجد

الطين الذي صُنعت منه الألواح المسمارية.

الطين الذي بُنيت به البيوت والزقورات.

والطين الذي بدأت منه أولى الحضارات.

ثم "المجد" الذي وصلت إليه تلك الأمم بإنجازاتها.

التحية باللغة السومرية

silim-ma ḫe$_2$-me-en

سيلِمّا خيمين

(عسى ان تكون سالما)

الفصل الأول

حين تكلم الطين لأول مرة

لآلاف السنين، كان العالم يظن أن بداية الحضارة تعود إلى مصر القديمة أو إلى حضارات ورد ذكرها في الكتب الكلاسيكية.

أما جنوب العراق، فلم يكن في نظر كثيرين سوى أرض تنتشر فيها تلال طينية صامتة، يخفي كل واحد منها مدينة نسيها الزمن.

لم يكن أحد يعرف أن تحت تلك التلال ترقد حضارة ستغيّر فهم الإنسان لتاريخه كله.

في القرن التاسع عشر، بدأ عدد من الرحالة الأوروبيين يزورون بلاد الرافدين، مدفوعين بالفضول والرغبة في البحث عن المدن التي وردت في النصوص القديمة. وفي البداية، انصب اهتمامهم على المدن الآشورية، لكن الاكتشافات المتتالية كشفت أن تاريخ هذه الأرض أقدم بكثير مما كان يُعتقد. ثم جاءت اللحظة التي غيّرت كل شيء.

ففي عام ١٨٦٩م أعلن عالم اللغات والآثار الفرنسي جول أوبير أن هناك شعبًا أقدم من البابليين والآشوريين، وأطلق عليه اسم السومريين، اعتمادًا على النصوص المسمارية التي حملت لقب «ملك سومر وأكد». في ذلك الوقت، بدا هذا الرأي غريبًا لكثير من الباحثين، لكن السنوات التالية أثبتت صحته. وبدأت الحفريات تكشف أسرارًا مذهلة.

في عام ١٨٧٧م بدأ الدبلوماسي وعالم الآثار الفرنسي إرنست دي سارزيك التنقيب في مدينة جرسو (تلّو)، فعثر على آلاف التماثيل والألواح المسمارية والنقوش، لتظهر أمام العالم حضارة لم تكن معروفة من قبل. ثم

تتابعت أعمال التنقيب في نيبور وشوروباك وأور وأوروك، ومع كل موسم حفريات كانت صفحات جديدة من التاريخ تخرج من تحت التراب.

لكن المشكلة لم تكن في العثور على الألواح، بل في قراءتها.

فالكتابة المسمارية بدت وكأنها مجموعة من المسامير الصغيرة المحفورة على الطين، ولم يكن أحد يعرف كيف تُقرأ.

وبعد سنوات من الدراسة، نجح عدد من العلماء، من أبرزهم هنري رولنسون وإدوارد هينكس وجول أوبير، في فك رموز الكتابة المسمارية، لتبدأ آلاف النصوص القديمة بالكشف عن أسرارها. فجأة، لم تعد سومر مجرد أطلال، بل أصبحت حضارة تتحدث بلغتها، وتحكي قصص ملوكها، وأساطيرها، وقوانينها، وحياتها اليومية بنفسها.

ومن بين تلك الألواح خرجت أسماء لم يسمع بها العالم منذ آلاف السنين: كلكامش، أور نمو، إنانا، إنليل، إنكي، أور، أوروك، لكش... ألخ

كانت تلك الأسماء بداية رحلة جديدة، رحلة أعادت إلى البشرية فصلًا كاملًا من تاريخها كان مدفونًا تحت طبقات الطين.

وهكذا، لم تُكتشف الحضارة السومرية بالسيف، ولا بالأساطير، بل بقطعة طين صغيرة، حملت أول الكلمات التي استطاع الإنسان أن يكتبها، لتخبر العالم أن بداية الحضارة كانت هنا بين دجلة والفرات.

من هم السومريون؟

يُعد السومريون أول شعب أسس حضارة مدنية متكاملة في جنوب بلاد الرافدين، في المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، والتي تُعرف اليوم بجنوب العراق. وقد ازدهرت مدنهم الكبرى بين نحو ٤٥٠٠ و١٩٠٠ قبل الميلاد، مع أن أوج حضارتهم كان خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد.

لكن سؤالًا حيّر المؤرخين طويلًا هو من أين جاء السومريون؟

حتى اليوم لا توجد إجابة قاطعة. فالنصوص السومرية نفسها لا تذكر موطنهم الأول، كما أن لغتهم لا تنتمي إلى أي عائلة لغوية معروفة، فلا هي سامية مثل الأكدية والعربية، ولا هندوأوروبية، ولا ترتبط ارتباطًا مؤكدًا بأي لغة قديمة أخرى. ولهذا يصفها الباحثون بأنها لغة معزولة، وهي من أكبر ألغاز تاريخ اللغات.

ويرى بعض الباحثين أن السومريين ربما هاجروا إلى جنوب بلاد الرافدين من منطقة أخرى قبل آلاف السنين، بينما يرى آخرون أنهم تطوروا تدريجيًا داخل المنطقة نفسها نتيجة امتزاج جماعات سكانية متعددة. وحتى الآن لا يملك علماء الآثار دليلًا حاسمًا يرجح إحدى النظريتين على الأخرى، لذلك ما يزال أصل السومريين موضع نقاش علمي.

استقر السومريون في السهول الخصبة التي كوّنتها رواسب دجلة والفرات، لكن هذه الأرض لم تكن سهلة العيش. فقد كانت المستنقعات واسعة، والفيضانات غير منتظمة، مما اضطرهم إلى حفر القنوات وبناء السدود وتنظيم توزيع المياه. ومع مرور الزمن تحولت تلك السهول إلى واحدة من أكثر المناطق إنتاجًا في العالم القديم.

ولم يؤسس السومريون دولة واحدة في البداية، بل أنشؤوا دولًا مدنية مستقلة، لكل مدينة ملكها، ومعبدها، وإلهها الحامي، وجيشها، وقوانينها الخاصة. ومن أشهر هذه المدن أوروك، أور، لكش، نيبور، كيش، أريدو، أوما، وشوروباك. وكانت العلاقة بينها تتأرجح بين التجارة والتحالف، وبين الصراع والحروب.

وقد اعتبر السومريون مدينتي أريدو ونيبور من أقدس مدنهم؛ فبحسب معتقداتهم كانت أريدو أول مدينة منحها الآلهة للبشر، بينما أصبحت نيبور المركز الديني الأهم، لأنها ارتبطت بالإله إنليل، الذي عُدّ سيد الآلهة في العقيدة السومرية.

ولم يكن السومريون مجرد مزارعين أو بناة مدن، بل كانوا أصحاب نقلة حضارية غيرت تاريخ البشرية. ففي مدنهم ظهرت أول كتابة مسمارية، وأول مدارس للكتبة، وأقدم القوانين التي مهدت للتشريعات اللاحقة، كما تركوا آلاف الألواح الطينية التي حفظت أخبار ملوكهم، وعقودهم التجارية، ورسائلهم، وأساطيرهم، وأناشيدهم الدينية، لتصبح نافذة نطل منها اليوم على حياة عاشها الناس قبل أكثر من خمسة آلاف عام.

ولذلك لا ينظر المؤرخون إلى السومريين بوصفهم مجرد حضارة قديمة، بل بوصفهم نقطة البداية التي انطلقت منها كثير من الإنجازات التي أثرت في حضارات بلاد الرافدين، ثم انتقلت إلى أنحاء واسعة من العالم القديم.

وكان السومريون يسمون بلادهم «كي إن غير» (Ki-en-gi أوki-en-gir) ويُفسَّر معناها غالبًا بـ«أرض السادة المتحضرين» أو «أرض اللغة السومرية»، مع اختلاف بسيط بين الباحثين في تفسير التسمية.

أوروك المدينة التي غيّرت مجرى التاريخ

على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وفي قلب جنوب بلاد الرافدين، قامت مدينة ستصبح واحدة من أشهر مدن العالم القديم، ليس بسبب اتساعها فحسب، بل لأنها كانت شاهدة على ولادة كثير من الإنجازات التي غيّرت تاريخ البشرية. إنها أوروك، التي تُعرف اليوم بموقع الوركاء في محافظة المثنى جنوب العراق.

ظهرت أوروك في أواخر الألف الخامس قبل الميلاد، ثم نمت بسرعة حتى أصبحت، نحو عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد، أكبر مدينة عرفها العالم آنذاك، ويقدّر الباحثون أن عدد سكانها وصل إلى عشرات الآلاف، وهو رقم استثنائي في ذلك العصر. وقد أحاطت بها أسوار ضخمة، حتى إن التقاليد السومرية نسبت بناءها إلى ملكها الأشهر كلكامش، الذي سيصبح لاحقًا بطل أعظم ملحمة أدبية عرفها العالم القديم.

لم تكن أوروك مجرد مدينة كبيرة، بل كانت مركزًا للإدارة والاقتصاد والدين. فقد كشفت الحفريات الأثرية عن مجمعات معابد ضخمة، وساحات عامة، وورش لصناعة الفخار والأدوات، إضافة إلى آلاف الألواح الطينية التي سجلت معاملات اقتصادية وإدارية، وهي من أقدم الشواهد على استخدام الكتابة في تاريخ الإنسان.

ومن أبرز معالم المدينة معبد الإلهة إنانا، الذي كان من أهم المراكز الدينية في سومر، كما عُثر على بقايا ما يُعرف بالمعبد الأبيض، وهو بناء شُيّد فوق مصطبة مرتفعة، ويُعد من أقدم النماذج التي مهدت لاحقًا لظهور الزقورات السومرية.

ولم تقتصر أهمية أوروك على حدود سومر، فقد حمل التجار والحرفيون القادمون منها بضائعهم وأفكارهم إلى مناطق بعيدة، مما ساهم في انتشار التأثير السومري في أنحاء مختلفة من بلاد الرافدين والمناطق المجاورة.

وعندما يذكر اسم أوروك، يتبادر إلى الذهن مباشرة اسم رجلٍ أصبح رمزًا للبطولة والبحث عن الخلود الملك كلكامش، الذي مزجت سيرته بين التاريخ والأسطورة، حتى بقي اسمه حيًا بعد أكثر من أربعة آلاف عام.

كلكامش الملك الذي تحدّى الموت

يُعد كلكامش أشهر ملوك الحضارة السومرية، حتى إن اسمه تجاوز حدود التاريخ ليصبح رمزًا عالميًا في الأدب والأساطير. وقد ورد اسمه في قائمة الملوك السومريين بوصفه الملك الخامس لمدينة أوروك، ويُرجّح عدد من الباحثين أنه عاش في حدود ٢٧٠٠–٢٦٠٠ قبل الميلاد، إلا أن تفاصيل حياته التاريخية ما تزال محدودة، بينما حفظت لنا ملحمة كلكامش صورته الأسطورية.

تصف الملحمة كلكامش بأنه كان قوي البنية، شجاعًا، لا يُهزم في القتال، وقد بنى أسوار أوروك العظيمة التي أصبحت مصدر فخر لأهلها. لكنه في بداية حكمه لم يكن الملك الذي يتمناه شعبه، فقد كان شديدًا في معاملته للناس، يرهقهم بالأعمال، ولا يترك لهم حرية الاعتراض، حتى ضجّ أهل أوروك من تصرفاته ورفعوا شكواهم إلى الآلهة.

وهنا تبدأ واحدة من أشهر القصص في تاريخ الأدب القديم، إذ قررت الآلهة أن تخلق رجلًا يستطيع الوقوف في وجه كلكامش، ويكون ندًا له في القوة. وكان ذلك الرجل هو إنكيدو.

لم يكن إنكيدو يعيش بين البشر، بل نشأ في البرية، يركض مع الحيوانات، ويشرب من ينابيع الماء، حتى بدا كأنه جزء من الطبيعة نفسها. ولم يكن يعرف المدن ولا القوانين ولا حياة الناس، إلى أن بدأت رحلته نحو أوروك، حيث سيلتقي كلكامش، في لقاء سيغيّر حياة الاثنين معًا.

ولم يكن أحد يدرك أن الصراع الذي بدأ بين الرجلين سيتحول إلى أعظم صداقة عرفتها الأساطير السومرية، وأن تلك الصداقة ستكون السبب في رحلة كلكامش الطويلة للبحث عن سر الخلود، وهي الرحلة التي خلدت اسمه إلى يومنا هذا.

وهكذا، قبل أن يصبح كلكامش بطلًا يبحث عن الحياة الأبدية، كان ملكًا يتعلم درسًا مهمًا أن القوة وحدها لا تصنع الحاكم العظيم، وأن الإنسان قد يجد في الصداقة ما لا يجده في السيف أو العرش

إنكيدو الرجل الذي خرج من قلب البرية

استجابت الآلهة لشكوى أهل أوروك، وقررت أن تخلق رجلًا يكون ندًا لكلكامش في القوة، فلا يخشاه ولا يخضع له. فتولت الإلهة أرورو، التي نُسب إليها خلق البشر في بعض النصوص السومرية، تشكيل رجل من طين الأرض، ثم نفخت فيه الحياة. وهكذا وُلد إنكيدو.

لم يعرف إنكيدو مدينة ولا معبدًا ولا قانونًا. كانت البرية موطنه، وكانت الحيوانات رفاقه. كان يركض مع الظباء، ويشرب الماء من البرك، ويفك الشِّباك التي ينصبها الصيادون، ويطلق الحيوانات الأسيرة، حتى أصبح وجوده مصدر قلق لكل من يعيش من الصيد.

وفي أحد الأيام، عاد أحد الصيادين إلى أبيه مذعورًا، وقال إن رجلًا غريبًا يفسد عمله كل يوم، ويحرر الحيوانات من الفخاخ. فنصحه أبوه بالذهاب إلى أوروك وإخبار الملك كلكامش بما يحدث.

استمع كلكامش إلى حديث الصياد، ثم طلب منه أن يعود برفقة امرأة تُدعى شمهات، وكانت من النساء اللواتي يعملن في معبد الإلهة إنانا. لم يكن الهدف منها القتال، بل جذب إنكيدو إلى عالم البشر.

جلست شمهات قرب مورد الماء الذي اعتادت الحيوانات أن تأتي إليه، وما إن رآها إنكيدو حتى اقترب منها. وبعد أيام قضاها معها، حدث أمر لم يكن يتوقعه؛ فعندما حاول العودة إلى الحيوانات، ابتعدت عنه وهربت منه، وكأنها لم تعد تعرفه.

عندها أدرك إنكيدو أن شيئًا قد تغير داخله. لم يعد ذلك الرجل الذي عاش حياته كلها في البرية، بل أصبح أقرب إلى البشر. أخذته شمهات إلى الرعاة، فعلموه كيف يأكل الخبز، وهو طعام لم يذقه من قبل، وكيف يشرب الجعة التي كانت من أشهر مشروبات أهل سومر، وكيف يرتدي الملابس بدل جلود الحيوانات.

ولم يكن التغيير في مظهره فقط، بل في نظرته إلى العالم. فقد تعرّف لأول مرة إلى معنى المدينة، والقانون، والصداقة، والعدالة، وسمع من الرعاة أخبار ملك أوروك الذي يرهق شعبه بقوته وجبروته عندها اتخذ إنكيدو قراره. سيتجه إلى أوروك ليس ليصبح ملكًا، بل ليقف في وجه الملك نفسه.

اللقاء الذي غيّر حياة كلكامش

بينما كان إنكيدو يقترب من أسوار أوروك، كان أهل المدينة يتحدثون عن قوته الغريبة، وعن الرجل القادم من البرية الذي لا يخاف أحدًا. أما هو، فقد كان يحمل هدفًا واحدًا أن يضع حدًا لتصرفات الملك التي أثقلت كاهل الناس.

وفي الليلة نفسها، رأى كلكامش حلمًا غريبًا، فقصّه على أمه نينسون، التي اشتهرت بالحكمة. أخبرته أن رجلًا عظيم القوة سيصل قريبًا إلى أوروك، وأنه لن يكون عدوًا له، بل صديقًا سيقف إلى جانبه في أصعب أيام حياته.

ولم تمضِ أيام حتى التقى الرجلان. تذكر بعض النصوص أن المواجهة بدأت عند مدخل بيت عرس، حين حاول كلكامش الدخول وفق العادة الملكية السائدة آنذاك، لكن إنكيدو وقف في طريقه ومنعه. لم يتبادل الاثنان الكلمات طويلًا، بل اشتبكا في صراع عنيف هزّ شوارع أوروك، واجتمع الناس لمشاهدة رجلين لم يروا مثلهما قوة من قبل. استمرت المبارزة حتى أدرك كل واحد منهما أن الآخر ليس خصمًا عاديًا. ومع انتهاء القتال، لم يخرج أحدهما منتصرًا على الآخر، بل خرجا باحترام متبادل. وهنا حدث التحول الذي لم يتوقعه أحد. بدل أن يصبحا عدوين، أصبحا صديقين. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد كلكامش الملك المتكبر الذي عرفه أهل أوروك في بداية القصة، فقد وجد في إنكيدو شخصًا يواجهه بالحقيقة، ويشاركه المغامرة، ويقف إلى جانبه دون خوف أو تملق. كانت تلك الصداقة نقطة تحول في حياة الاثنين معًا، لكنها أيضًا كانت بداية سلسلة من الأحداث التي ستقودهما إلى مواجهة مخلوق مرعب، ظل اسمه يثير الرهبة في نفوس أهل سومر لقرون طويلة إنه خمبابا حارس غابة الأرز.

رحلة إلى غابة الأرز

بعد أن أصبحت الصداقة تجمع كلكامش وإنكيدو، بدأ ملك أوروك يفكر في عمل يخلّد اسمه إلى الأبد. كان يعلم أن حياة الإنسان قصيرة، وأن الموت ينتظر الجميع، لكنه آمن بأن الأعمال العظيمة وحدها هي التي تبقي صاحبها حيًا في ذاكرة الأجيال.

ولهذا أعلن أمام شيوخ أوروك عزمه على التوجه إلى غابة الأرز، وهي غابة اشتهرت في نصوص بلاد الرافدين بأشجارها الضخمة وثروتها الخشبية، ويُرجّح كثير من الباحثين أنها كانت تقع في جبال لبنان الحالية، حيث كانت أخشاب الأرز من أثمن المواد التي احتاجتها مدن بلاد الرافدين لبناء المعابد والقصور والسفن.

لكن هذه الغابة لم تكن مكانًا عاديًا، فقد اعتقد السومريون أن الآلهة أوكلت حراستها إلى مخلوق هائل يُدعى خمبابا، وكان اسمه وحده كافيًا لبث الرعب في قلوب الناس. وتصفه الملحمة بأنه صاحب هيبة مرعبة، وصوت يشبه العاصفة، وأنفاس حارقة، وقد مُنح قوة خارقة ليمنع البشر من الاقتراب من الغابة المقدسة.

حين سمع شيوخ أوروك بخطة كلكامش، حاولوا ثنيه عن السفر، ونصحوه بألا يستهين بخصمه، وأن يعتمد على حكمة إنكيدو، لأنه يعرف البراري أكثر من أي رجل في المدينة. أما نينسون، والدة كلكامش، فقد رفعت صلواتها إلى الإله أوتو، طالبةً منه أن يحمي ابنها في رحلته، ثم تبنت إنكيدو رمزيًا، وأعلنت أنه أصبح كأحد أبنائها، لتربط بين البطلين برباطٍ يتجاوز الصداقة.

وقبل مغادرة أوروك، صنع الحدادون أسلحة جديدة للبطلين. فقد حمل كل واحد منهما فأسًا ضخمة وسيفًا، استعدادًا للمواجهة التي كان الجميع يعتقد أنها قد تكون الأخيرة في حياتهما.

وانطلق الصديقان في رحلة طويلة نحو غابة الأرز، يقطعان السهول والجبال، حتى وصلا إلى أطراف الغابة التي لم يجرؤ كثير من البشر على دخولها. وقف الاثنان أمام الأشجار العملاقة، وساد صمت ثقيل، وكأن الغابة نفسها كانت تراقبهما. ثم دوّى في المكان زئيرٌ هزّ الأرض.

لقد شعر خمبابا بأن ضيفين غير مرغوب فيهما قد وصلا إلى مملكته.

معركة خمبابا

لم يكن خمبابا وحشًا عاديًا في نظر السومريين، بل كان الحارس الذي عيّنته الآلهة لحماية غابة الأرز. ولذلك، عندما اقترب كلكامش وإنكيدو من قلب الغابة، خرج لمواجهتهما بكل ما أوتي من قوة.

تصف الملحمة خمبابا بأنه كان يملك "سبع هيئات مرعبة" أو "سبعة أهوال"، وهي تعبير استخدمه السومريون للدلالة على قوته الخارقة وهيبته التي تُفقد خصومه شجاعتهم قبل أن يبدأ القتال.

في البداية، شعر كلكامش بالخوف، وهو أمر نادر بالنسبة لبطل اشتهر بشجاعته. لكن إنكيدو شجعه، وذكّره بأن العودة الآن ستجعل أهل أوروك يتذكرونه كملك خاف من أول اختبار حقيقي.

اندلعت المعركة، واهتزت الأرض تحت أقدام المتقاتلين. وتروي الملحمة أن الإله أوتو أرسل رياحًا قوية أربكت خمبابا، فلم يعد قادرًا على الحركة كما

كان من قبل. استغل كلكامش وإنكيدو الفرصة، ووجها إليه ضربات متتالية حتى أدرك أنه لن ينجو. عندها تغير المشهد تمامًا.

لم يعد خمبابا يقاتل، بل بدأ يتوسل إلى كلكامش، ووعده بأنه سيكون خادمًا له، وسيهبه أخشاب الغابة وكل ما فيها إن هو عفا عنه. تردد كلكامش للحظة لكن إنكيدو خشي أن يخدعهم خمبابا إذا أطلقوا سراحه، فنصح صديقه بألا يتراجع. فرفع كلكامش سيفه، ووجه الضربة الأخيرة.

بسقوط خمبابا، انتهت الحراسة التي فرضتها الآلهة على غابة الأرز، وبدأ البطلان بقطع أشجارها الضخمة، ثم صنعا منها بابًا عظيمًا قيل إنهما قدماه هديةً إلى أحد معابد الآلهة.

وقد أثارت هذه الحادثة تساؤلات كثيرة بين الباحثين؛ فهل أرادت الملحمة تمجيد بطولة كلكامش فقط، أم أنها كانت تحذر الإنسان من تجاوز الحدود التي وضعتها الآلهة والطبيعة؟

مهما يكن الجواب، فإن قتل خمبابا لم يكن نهاية القصة بل كان بداية غضبٍ إلهي سيغيّر حياة كلكامش إلى الأبد.

ثور السماء حين تحولت البطولة إلى غضب الآلهة

عاد كلكامش وإنكيدو إلى أوروك وهما يحملان نصرًا لم يجرؤ أحد قبلهما على تحقيقه. استقبل أهل المدينة البطلين بالفرح، وراحوا يتحدثون عن شجاعتهما بعد القضاء على خمبابا، الحارس الذي ظل اسمه يثير الرعب لسنوات طويلة. وفي تلك الأثناء، كانت الإلهة إنانا تراقب كلكامش.

أُعجبت بوسامته وشهرته، وعرضت عليه أن يتزوجها، ووعدته بأن تمنحه المجد والثراء، وأن تجعل الملوك ينحنون أمامه، وأن تبارك الآلهة حكمه.

لكن كلكامش فاجأها برد لم تكن تتوقعه.

فقد رفض عرضها، ولم يكتفِ بالرفض، بل ذكّرها بمصير من أحبتهم من قبل، وقال إن نهايتهم كانت دائمًا التعاسة أو الهلاك. وعدّد أسماءً من الأساطير السومرية، ليبرر خوفه من أن يلقى المصير نفسه.

كان هذا الرفض إهانة لم تستطع إنانا أن تتقبلها.

فصعدت إلى السماء، وطلبت من والدها الإله آن أن يطلق ثور السماء لينتقم من كلكامش ويدمر أوروك. وتشير الملحمة إلى أن آن تردد في البداية، لأنه كان يعلم أن نزول ثور السماء سيجلب الخراب، لكنه وافق في النهاية بعد إلحاح إنانا. وما إن هبط الثور حتى عمّ الذعر في المدينة.

تقول الملحمة إن كل خطوة كان يخطوها تشق الأرض، وإن الحفر التي أحدثها ابتلعت عددًا من الرجال، حتى بدت أوروك على وشك السقوط.

لكن كلكامش وإنكيدو لم يتراجعا. انقض إنكيدو على الثور من الخلف، وأمسك بقرنيه، بينما وجه كلكامش ضربته القاضية، فسقط ثور السماء أرضًا، وانتهت المعركة بانتصار جديد للبطلين. غير أن هذا الانتصار لم يكن كغيره.

فقد رأت الآلهة أن كلكامش وإنكيدو تجاوزا الحدود مرتين؛ مرة عندما قتلا خمبابا، ومرة عندما قتلا ثور السماء. واجتمع مجلس الآلهة ليقرر أن أحد البطلين لا بد أن يدفع الثمن. وكان القرار أن يكون إنكيدو هو الضحية.

ولم يكن كلكامش يعلم أن أيام الفرح التي عاشها مع صديقه أوشكت على نهايتها، وأن الضربة التي ستصيبه لن تأتي من سيف عدو، بل من فقدان أعز إنسان عرفه في حياته.

موت إنكيدو اللحظة التي غيّرت كلكامش

لم تمضِ أيام على مقتل ثور السماء حتى بدأ إنكيدو يرى أحلامًا مزعجة. وفي كل ليلة كان يشعر أن قوة خفية تقترب منه، حتى رأى في منامه مجلس الآلهة وهو يصدر حكمه الأخير لا بد أن يموت أحد البطلين، وكان الاختيار قد وقع عليه.

استيقظ إنكيدو مضطربًا، لكنه لم يلبث أن أصيب بمرض شديد أقعده عن الحركة. ومع مرور الأيام أخذ جسده يضعف، بينما كان كلكامش يجلس إلى جواره، عاجزًا عن فعل أي شيء لإنقاذ صديقه.

وفي لحظات الألم، أخذ إنكيدو يسترجع حياته، وتذكر البرية التي نشأ فيها، والصياد الذي قاده إلى أوروك، وشمهات التي فتحت له باب عالم البشر. وفي بعض ألواح الملحمة، يلعن إنكيدو تلك اللحظات، لأنه يرى أنها كانت بداية الطريق الذي أوصله إلى الموت، ثم يتراجع عن لعنته بعدما يتذكر ما عرفه من صداقة وحياة لم يكن ليعيشها لو بقي في البرية.

وبعد اثني عشر يومًا من المرض، أسلم إنكيدو روحه. ساد الصمت.

لم يصدق كلكامش أن الرجل الذي قاتل معه الوحوش، وقطع الصحارى، وواجه الموت، أصبح جسدًا بلا حراك.

اقترب من صديقه، ولم يفارقه لساعات طويلة، وظل يلمس وجهه ويناديه باسمه، وكأنه ينتظر أن يفتح عينيه من جديد. وتروي الملحمة أن كلكامش بقي أيامًا إلى جانب الجثمان، رافضًا دفنه، حتى بدأت علامات التحلل تظهر عليه، فعندها فقط أدرك أن الموت حقيقة لا يمكن إنكارها.

كان ذلك أول مرة يرى فيها كلكامش الموت بهذه القسوة.

ولم يعد يخاف على صديقه بل بدأ يخاف على نفسه قال في نفسه:

"إذا كان إنكيدو، بكل قوته، قد مات فسيأتي يوم أموت فيه أنا أيضًا."

ومن تلك اللحظة، لم يعد يبحث عن المجد، ولا عن الانتصارات، ولا عن البطولات. بل بدأ رحلة جديدة رحلة البحث عن شيء لم يستطع أي ملك قبله أن يجده الخلود.

رحلة البحث عن الخلود

لم يعد كلكامش هو الملك الذي خرج يومًا يبحث عن المجد في غابة الأرز. فمنذ وفاة إنكيدو، تبدل كل شيء. ترك قصره، وارتدى جلود الحيوانات، وأخذ يتنقل وحيدًا بين الجبال والوديان، لا هاربًا من عدو، بل هاربًا من المصير الذي ينتظر جميع البشر.

كان قد سمع عن رجل واحد استطاع أن يفلت من الموت، اسمه أوتنابشتم. وتقول الأسطورة إن الآلهة منحته الحياة الأبدية بعد أن نجا من طوفان عظيم أغرق الأرض. فإذا كان هناك من يعرف سر الخلود، فلا بد أن يكون هو. لكن الوصول إلى أوتنابشتم لم يكن سهلًا.

قطع كلكامش مسافات طويلة حتى بلغ جبلًا يحرس مدخله مخلوقان عجيبان، يوصفان في النصوص بأنهما رجل العقرب وزوجته. وكانا يحميان الطريق المؤدي إلى المكان الذي تغرب فيه الشمس كل مساء.

دهش الحارسان من جرأة إنسان وصل إلى هذا المكان، لكنهما رأيا في عينيه حزنًا لم يرياه من قبل، فسمحا له بالعبور.

دخل كلكامش نفقًا طويلًا يسوده ظلام دامس، حتى إنه سار ساعات طويلة لا يرى أمامه شيئًا. وتصف الملحمة هذا الطريق بأنه يمتد اثنتي عشرة

ساعة كاملة، حتى خرج أخيرًا إلى أرض غريبة تضيئها الأحجار الكريمة بدل الشمس، وتنمو فيها أشجار تحمل ثمارًا من اللازورد والعقيق والياقوت، في صورة أراد بها كاتب الملحمة أن يصور عالمًا يفوق خيال البشر.

وهناك التقى امرأة حكيمة تُدعى سيدوري، وكانت تدير حانة على أطراف البحر. وما إن رأت هيئته المتعبة حتى سألته عن سبب هذا العناء. قص عليها قصة إنكيدو، وخوفه من الموت، ورحلته الطويلة بحثًا عن الخلود.

استمعت إليه بهدوء، ثم قالت له كلمات بقيت من أشهر ما ورد في الملحمة:

إن الإنسان لا يستطيع أن يغيّر قدره، وإن الآلهة جعلت الخلود لنفسها، أما البشر فنصيبهم أن يعيشوا حياتهم، ويفرحوا بأيامهم، ويعتنوا بأهلهم، لأن هذه هي الهبة التي مُنحت لهم. لكن كلكامش لم يقتنع.

شكرها، وأصر على متابعة الطريق. فأخبرته أن السبيل الوحيد للوصول إلى أوتنابشتم هو عبور مياه الموت، وهي مياه لا يستطيع الإنسان لمسها، لأن لمسة واحدة منها تعني الهلاك. وهكذا، واصل رحلته، غير مدرك أن الجواب الذي يبحث عنه لم يعد بعيدًا، لكنه ربما لن يكون الجواب الذي تمناه

أوتنابشتم الرجل الذي نجا من الطوفان

بعد رحلة شاقة، وصل كلكامش إلى الشاطئ الذي يفصل عالم البشر عن مقر أوتنابشتم. وهناك التقى بالملاح أورشنابي، الذي وافق على مساعدته في عبور مياه الموت، لكن بعد أن صنع كلكامش عددًا كبيرًا من المجاديف الخشبية ليستخدم كل واحد منها مرة واحدة ثم يرميه، حتى لا تلامس يداه

تلك المياه القاتلة. وأخيرًا، وصل إلى الرجل الذي قطع كل تلك المسافات من أجله. كان أوتنابشتم هادئًا، وقد أثارت دهشته هيئة الملك المتعب الذي أنهكته الرحلة سأله "لماذا تحمل كل هذا الحزن على وجهك؟"

فأجابه كلكامش بقلب مثقل:"رأيت صديقي يموت، فعرفت أن الموت سيأتي إليّ أيضًا. جئت أبحث عن سر الخلود."

نظر إليه أوتنابشتم طويلًا، ثم قال:"قبل أن تبحث عن الخلود، يجب أن تعرف كيف وصلتُ إليه." وبدأ يروي قصته

قال إن الآلهة اجتمعت يومًا، وقررت أن تغمر الأرض بطوفان عظيم يمحو البشر. لكن الإله إنكي لم يشأ أن يفنى الناس جميعًا، فنقل سر القرار إلى أوتنابشتم بطريقة غير مباشرة، وأمره أن يبني سفينة ضخمة.

امتثل أوتنابشتم للأمر، وصنع سفينة كبيرة، وجمع فيها أفراد أسرته، وعددًا من الحرفيين، وحمل معه الحيوانات، وبذور النباتات، وكل ما يمكن أن يعيد الحياة بعد الكارثة. ثم جاء اليوم الموعود اسودّت السماء، وهبت الرياح، وانهمرت الأمطار، وارتفعت المياه حتى غمرت المدن والحقول والمعابد، ولم ينجُ أحد خارج السفينة. استمر الطوفان أيامًا، حتى هدأت العاصفة، واستقرت السفينة فوق جبل.

وليتأكد من انحسار المياه، أطلق أوتنابشتم طيورًا تباعًا. فعاد بعضها، بينما لم يعد الأخير، فعرف أن اليابسة ظهرت من جديد. بعدها قدّم قربانًا شكرًا للآلهة. وتقول الملحمة إن الآلهة ندمت على قرارها بإفناء البشر، ومنحت أوتنابشتم وزوجته مكافأة استثنائية لم يحصل عليها أي إنسان آخر الحياة الأبدية. أنهى أوتنابشتم قصته، ثم نظر إلى كلكامش وقال: "لكن لا تظن أن ما حدث لي يمكن أن يتكرر مع كل البشر. لقد كان استثناءً، لا قاعدة."

كانت تلك الكلمات قاسية على كلكامش. فقد بدأ يدرك أن الرحلة التي قطعها لم توصله إلى سر يستطيع أخذه معه، بل إلى حقيقة لم يكن يريد سماعها.

هل الطوفان السومري هو نفسه طوفان النبي نوح؟

يتساءل كثير من القراء عن العلاقة بين قصة الطوفان في ملحمة كلكامش وقصة طوفان النبي نوح عليه السلام الواردة في الكتب السماوية.

لا توجد إجابة علمية قاطعة، لكن الباحثين يطرحون عدة آراء:

يرى عدد من المؤرخين أن رواية الطوفان في بلاد الرافدين أقدم الروايات المكتوبة التي وصلت إلينا، وقد ظهرت في النصوص السومرية ثم البابلية، قبل أن تُدوَّن نصوص دينية لاحقة بقرون.

ويرى باحثون آخرون أن القصتين قد تعودان إلى حدث فيضان كبير وقع فعلًا في جنوب بلاد الرافدين، ثم تناقلته الشعوب بصيغ مختلفة عبر الزمن.

بينما يؤكد آخرون أنه لا يمكن الجزم بأن القصتين تتحدثان عن الحدث نفسه، لأن لكل رواية سياقها الديني والتاريخي وأهدافها الخاصة.

لذلك، يميز المؤرخون عادةً بين النصوص الأدبية والأسطورية التي تعكس معتقدات الشعوب القديمة، وبين النصوص الدينية التي يتعامل معها أتباعها بوصفها وحيًا إلهيًا. ومن الناحية العلمية، لا يوجد حتى اليوم دليل أثري يحسم أن الروايتين تصفان الحدث نفسه أو تنفي ذلك بصورة قاطعة.

نبتة الشباب الفرصة الأخيرة

رأى أوتنابشتم في إصرار كلكامش صدقًا لا عنادًا، فأراد أن يمنحه فرصة أخيرة. قال له: "في أعماق البحر تنبت نبتة شوكية، من استطاع الحصول عليها استعاد شبابه."

لم تكن النبتة تمنح الخلود، لكنها – بحسب الأسطورة – كانت تعيد القوة والحيوية لمن تقدم به العمر. لم يتردد كلكامش.

ربط حجارة ثقيلة بقدميه، وغاص إلى أعماق المياه حتى وصل إلى قاع البحر. وهناك وجد النبتة التي طالما حلم بها، فقطعها وهو يشعر أن رحلته الطويلة لم تذهب سدى. رفعها بين يديه وقال بفرح:

"لن أتناولها وحدي، بل سأعود بها إلى أوروك، وأجعل الشيوخ يتذوقونها أولًا، ثم أجربها بنفسي."

كان هذا القرار يكشف أن كلكامش لم يعد ذلك الملك الذي يفكر بنفسه فقط، بل أصبح يفكر في شعبه أيضًا. وفي طريق العودة، توقف عند إحدى البرك ليستحم بعد عناء الرحلة. ترك النبتة على مقربة منه وفي تلك اللحظة، خرجت حيّة من بين الأعشاب، واشتمت رائحة النبتة، فتقدمت نحوها وابتلعتها. وحين ابتعدت، تركت وراءها جلدها القديم، وكأنها استعادت شبابها. خرج كلكامش من الماء، فلم يجد شيئًا. وقف صامتًا.

ثم جلس على الأرض، وقد أدرك أن آخر أمل كان بين يديه قد ضاع في لحظة. لم يغضب من الحية، ولم يطاردها، لأنه فهم أن ما ضاع لن يعود.

واصل طريقه نحو أوروك، لكنه لم يعد الرجل نفسه الذي خرج منها قبل أشهر. عاد وهو يحمل شيئًا أثمن من نبتة الشباب عاد وهو يحمل الحكمة.

وحين ظهرت أسوار أوروك أمامه، نظر إليها طويلًا، وقال للملاح أورشنابي: "انظر إلى هذه الأسوار هذه هي الأعمال التي تبقى بعد رحيل أصحابها." وهكذا انتهت رحلة البحث عن الخلود.

لم يجد كلكامش حياةً لا تنتهي، لكنه اكتشف أن الإنسان يخلّد اسمه بما يتركه من أثر طيب، وعلم، وعمران، وأعمال نافعة، لا بعدد السنوات التي يعيشها. هل كان كلكامش شخصية حقيقية؟

بعد الانتهاء من ملحمة كلكامش، يطرح كثير من القراء سؤالًا مهمًا:

هل كان كلكامش ملكًا حقيقيًا، أم أنه مجرد بطل أسطوري؟

لا يملك الباحثون إجابة قاطعة، لكن معظمهم يميز بين الشخصية التاريخية والصورة الأسطورية.

فقد ورد اسم كلكامش في قائمة الملوك السومريين بوصفه الملك الخامس لمدينة أوروك، كما ظهر اسمه في عدد من النصوص السومرية القديمة، وهذا يدفع كثيرًا من المؤرخين إلى الاعتقاد بأنه كان ملكًا حقيقيًا عاش في الألفية الثالثة قبل الميلاد.

لكن الملحمة التي وصلت إلينا لا تروي سيرته التاريخية كما حدثت، بل تمزج الواقع بالخيال. ففيها آلهة تتدخل في حياة البشر، ووحوش عملاقة، ورجل ينجو من طوفان عظيم ويحصل على الخلود، وهي عناصر أدبية وأسطورية كانت شائعة في أدب العالم القديم.

ولهذا، يرى الباحثون أن شخصية كلكامش مرت بمرحلتين:

المرحلة الأولى: ملك حكم أوروك، وربما ترك أثرًا كبيرًا في زمنه.

المرحلة الثانية: تحوّل مع مرور القرون إلى بطل أسطوري، وأضاف الرواة والكتبة إلى قصته أحداثًا ورموزًا تعبر عن أفكارهم حول الحياة والموت والبطولة.

ومن المثير للاهتمام أن ملحمة كلكامش لم تُكتب مرة واحدة، بل تطورت عبر مئات السنين. فقد بدأت بقصص سومرية مستقلة عن كلكامش، ثم جُمعت لاحقًا في ملحمة واحدة باللغة البابلية، وهي النسخة التي عُثر على معظم ألواحها في مكتبة الملك الآشوري آشور بانيبال في نينوى.

ولذلك، فإن أهمية كلكامش لا تكمن في معرفة ما إذا كان قد قاتل خمبابا فعلًا أو بحث عن نبتة الشباب، بل في أن قصته أصبحت مرآةً لأسئلة الإنسان الكبرى:

لماذا نموت؟

وهل يبقى من الإنسان شيء بعد رحيله؟

وما الذي يجعل الحياة جديرة بأن تُعاش؟

ولهذا السبب، ما زالت ملحمة كلكامش تُدرَّس حتى اليوم في الجامعات، وتُترجم إلى عشرات اللغات، وتُعد واحدة من أقدم وأعظم الأعمال الأدبية التي عرفتها البشرية.

إيناتوم الملك الذي ترك أول وصفٍ لحرب في التاريخ

بعد أن غادرنا عالم كلكامش، حيث امتزج التاريخ بالأسطورة، نصل الآن إلى شخصية يراها المؤرخون أقرب إلى التاريخ الموثق.

إنه إيناتوم، أحد أشهر ملوك مدينة لكش، الذي حكم في حدود ٢٤٥٠ قبل الميلاد. ولم يشتهر لأنه فتح مدنًا كثيرة فحسب، بل لأنه ترك لنا أثرًا حجريًا يُعد من أهم الوثائق العسكرية في العالم القديم، حتى إن كثيرًا من الباحثين يصفونه بأنه أقدم سجل مصور لحرب عرفه الإنسان.

لكن قبل أن تبدأ الحرب، لا بد أن نعرف سببها.

لماذا تحاربت لكش وأوما؟

لم تكن الحرب بسبب الذهب أو الثروة، بل بسبب الأرض والماء.

فبين مدينتي لكش وأوما كانت تمتد منطقة زراعية خصبة تُعرف باسم غوئيدينا (Gu'edena)، وتعني بالسومرية "حافة السهل". وكانت هذه الأرض من أغنى الأراضي الزراعية في المنطقة، لذلك تنافست المدينتان على السيطرة عليها. ولم يكن هذا النزاع جديدًا.

فقبل حكم إيناتوم بسنوات، حاول ملوك سابقون رسم الحدود بين المدينتين، بل نُصبت شواهد حجرية لتحديد الأراضي ومنع النزاع، لكن الاتفاقات لم تصمد طويلًا، وعادت الاشتباكات من جديد.

وعندما اعتلى إيناتوم عرش لكش، وجد أن أوما استولت على أجزاء من الأراضي التي كانت لكش تعدها ملكًا لها. فقرر أن يحسم الأمر ولكن هذه المرة بالسلاح.

في صباحٍ من أيام الربيع، تحرك جيش لكش بقيادة إيناتوم نحو الحدود المتنازع عليها. لم يكن جيشًا كبيرًا بمقاييس اليوم، لكنه كان منظمًا على نحوٍ غير مألوف في ذلك العصر.

وقف الجنود كتفًا إلى كتف، يحملون الرماح الطويلة والدروع المستطيلة، ويتقدمون في صفوف متماسكة، بينما يقودهم الملك بنفسه من المقدمة، في مشهد سيخلده الفن السومري على حجر بقي محفوظًا حتى يومنا هذا.

وكانت تلك المعركة بداية واحدة من أهم الوثائق العسكرية في تاريخ البشرية لوح النسور.

لوح النسور حجرٌ روى قصة الحرب

بعد انتصار إيناتوم، لم يكتفِ بإعلان النصر بين أهل لكش، بل أراد أن يخلده للأجيال. فأمر بنحت نصب حجري كبير، عُرف اليوم باسم لوح النسور، وهو من أشهر القطع الأثرية التي وصلتنا من الحضارة السومرية، ويُعرض جزء كبير منه اليوم في متحف اللوفر في باريس.

وسُمّي بهذا الاسم لأن أحد مشاهده يصور طيورًا جارحة، يُعتقد أنها نسور، تحمل رؤوس وأطراف الجنود القتلى في مناقيرها ومخالبها، في تصوير صادم يعكس قسوة الحروب في ذلك الزمن. لكن أهمية اللوح لا تكمن في هذا المشهد وحده. فعندما يتأمله الباحثون، يجدون أنه ينقسم إلى جانبين مختلفين:

في الجانب الأول، نرى إيناتوم يقود جيشه بنفسه. يقف في مقدمة الجنود، بينما يتقدم الجيش في صفوف متراصة، يحمل الرجال الرماح والدروع الكبيرة، وكأنهم جسد واحد. ويعد هذا أقدم تصوير معروف لتشكيل عسكري

منظم، وهو دليل على أن الجيوش السومرية لم تكن مجرد مجموعات من المقاتلين، بل كانت تمتلك نظامًا وانضباطًا واضحين.

أما الجانب الآخر، فيحمل رسالة مختلفة تمامًا فهو يصور الإله نينجيرسو، الإله الحامي لمدينة لكش، ممسكًا بشبكة ضخمة حبس فيها أعداء المدينة، بينما يرفع بيده الأخرى سلاحًا يستعد لضربهم. ولم يكن الهدف من هذا المشهد وصف ما حدث في ساحة القتال، بل إيصال فكرة آمن بها السومريون، وهي أن النصر لا يتحقق بقوة الجيش وحدها، بل بتأييد الآلهة أيضًا.

وهكذا جمع لوح النسور بين عالمين: عالم التاريخ الذي يصور الجنود والملك، وعالم المعتقدات الذي يصور تدخل الآلهة في مصير البشر.

ورغم أن أجزاءً من اللوح تعرضت للكسر مع مرور الزمن، فإنه ما زال يُعد من أهم المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون لفهم طبيعة الحروب، وتنظيم الجيوش، والفكر الديني في بلاد الرافدين قبل أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة عام.

ولم يكن إيناتوم يعلم، وهو يأمر بنحت هذا اللوح، أنه سيبقى شاهدًا على انتصاره حتى بعد آلاف السنين، وأن اسمه سيُقرأ في متاحف العالم بعد أن اندثرت مملكته بزمن طويل.

لوجال زاكيسي الملك الذي ظن أن سومر أصبحت له

بعد انتصار إيناتوم بسنوات طويلة، بقيت المدن السومرية تعيش على إيقاع التحالفات والحروب. فما إن يشتد عود مدينة حتى تحاول فرض نفوذها على جيرانها، ثم لا تلبث أن تظهر مدينة أخرى تنازعها السلطة.

وفي خضم هذا الصراع، برز رجل سيقترب أكثر من أي حاكم سبقه من تحقيق حلم طالما راود ملوك سومر توحيد المدن السومرية.

كان اسمه لوجال زاكيسي، ويعني اسمه بالسومرية "الملك الذي أعلنت العدالة براءته" أو "الملك النقي"، وهو في الأصل حاكم مدينة أوما، المدينة التي خاضت حروبًا طويلة مع لكش. لكن لوجال زاكيسي لم يكتفِ بحكم مدينته. بدأ يوسع نفوذه مدينةً بعد أخرى، حتى هاجم لكش، التي كانت يومًا أقوى مدن سومر. وتشير النصوص إلى أنه ألحق بها دمارًا كبيرًا، وأحرق معابدها، وأنهى هيمنتها السياسية التي استمرت سنوات طويلة. ومن هناك، واصل حملاته العسكرية، حتى أصبحت مدن سومر الكبرى، مثل أوروك وأور ونيبور، خاضعة لسلطته. واختار أوروك مقرًا لحكمه، لأنها كانت المدينة الأهم سياسيًا ورمزيًا في ذلك العصر.

وتفاخر لوجال زاكيسي في إحدى كتاباته بأنه بسط سلطانه "من البحر السفلي إلى البحر العلوي". ويرى معظم الباحثين أن المقصود بالبحر السفلي هو الخليج العربي، أما البحر العلوي فهو البحر الأبيض المتوسط، وهي عبارة كانت تستخدم للدلالة على اتساع النفوذ، وقد لا تعني بالضرورة سيطرة مباشرة على كل تلك الأراضي. وبدا وكأن حلم توحيد سومر قد تحقق أخيرًا لكن التاريخ كان يخبئ مفاجأة لم يتوقعها أحد. ففي الشمال، كان رجل آخر يجمع جيشًا قويًا، ويؤسس دولة جديدة لم تكن سومر تعرفها من قبل. اسمه سرجون الأكدي.

كيف كانت الحياة في المدن السومرية؟

إذا سافرت إلى إحدى المدن السومرية قبل أكثر من أربعة آلاف عام، فلن تجد مدينة هادئة كما قد يتخيل البعض، بل ستدخل عالمًا مليئًا بالحركة.

مع شروق الشمس، تُفتح أبواب البيوت والأسواق، ويتجه الفلاحون إلى الحقول، بينما يفتح الحرفيون ورشهم، ويتوافد التجار إلى الساحات حاملين بضائع جاءت من مناطق بعيدة. وفي الأزقة الضيقة تسمع أصوات الأطفال، ورنين أدوات الحدادين، ورائحة الخبز الخارج من الأفران الطينية.

كانت معظم البيوت تُبنى من اللِّبن، وهو الطين المخلوط بالتبن والمجفف تحت أشعة الشمس. وقد ساعدت هذه المادة على إبقاء البيوت معتدلة الحرارة في الصيف، ودافئة نسبيًا في الشتاء.

ومن الخارج بدت البيوت بسيطة، لكن كثيرًا منها كان يلتف حول فناء داخلي مكشوف، تدخل منه أشعة الشمس والهواء. وكانت الغرف تُبنى حول هذا الفناء، مما وفر للعائلة قدرًا من الخصوصية بعيدًا عن ضجيج الشارع.

أما الأثاث فلم يكن كثيرًا كما هو اليوم. فقد استخدم السومريون المقاعد الخشبية، والصناديق لحفظ الملابس والأدوات، والحصر المصنوعة من القصب، بينما كان الأثرياء يمتلكون أسرّة وطاولات مزينة بالعاج والأخشاب المستوردة.

وكانت الأسرة تمثل أساس المجتمع. يعيش الأب والأم والأبناء معًا، وفي بعض الأحيان يشاركهم الأجداد أو الأقارب المنزل نفسه. وكان احترام الأكبر سنًا من القيم المهمة في المجتمع السومري، كما كانت العائلة تتعاون في إدارة شؤون المنزل والعمل.

وعندما يحل المساء، تخف حركة الأسواق، ويعود الناس إلى بيوتهم، بينما تبقى المعابد مضاءة بالمشاعل، ويستمر الكهنة في أداء الطقوس الدينية التي اعتقد السومريون أنها تحفظ النظام في الكون وتحمي مدنهم من غضب الآلهة.

ورغم أن أكثر من أربعة آلاف عام تفصلنا عن تلك المدن، فإن الحفريات الأثرية كشفت تفاصيل دقيقة عن حياتهم، حتى إن علماء الآثار استطاعوا إعادة رسم مخططات بعض البيوت، ومعرفة أماكن المطابخ، والآبار، والمخازن، مما منحنا صورة واضحة عن الحياة اليومية في أولى مدن العالم.

ماذا كان يأكل السومريون؟

إذا دُعيت إلى مائدة في أحد بيوت سومر، فلن تجد الأطعمة التي اعتدناها اليوم، لكنك ستفاجأ بتنوع ما كان يُقدم، فقد اعتمد السومريون على ما تنتجه حقولهم وأنهارهم وقطعانهم.

كان الشعير سيد المحاصيل، حتى إنه لم يكن يُستخدم لصنع الخبز فقط، بل دخل أيضًا في إعداد أشهر مشروباتهم، وهو الجعة. أما القمح فكان أقل انتشارًا في بعض الفترات، لكنه استُخدم هو الآخر في صناعة أنواع مختلفة من الخبز.

ولم يكن الخبز نوعًا واحدًا، فقد عثر الباحثون على نصوص تشير إلى عشرات الأنواع، بعضها يُخبز سادة، وبعضها يُضاف إليه التمر أو السمسم أو الزيوت، بحسب المناسبة والمكانة الاجتماعية.

وكان التمر من أكثر الأغذية قيمة في جنوب بلاد الرافدين. فلم تكن النخلة تمنحهم الثمار فقط، بل استُخدم جذعها في البناء، وسعفها في صناعة

السلال والحصر، لذلك أطلق عليها بعض الباحثين اسم "شجرة الحياة" بالنسبة لسكان سومر.

أما اللحوم، فلم تكن طعامًا يوميًا لمعظم الناس، بل كانت تُقدم غالبًا في المناسبات أو الأعياد. وكان لحم الأغنام والماعز أكثر شيوعًا، بينما اعتمد سكان المدن القريبة من الأنهار على الأسماك، التي كانت تُشوى أو تُجفف لتبقى صالحة لفترات أطول.

كما عرف السومريون منتجات الألبان، مثل الحليب واللبن وبعض أنواع الجبن، وأكلوا البصل والثوم والعدس والحمص والخيار، واستعملوا الزيوت النباتية في إعداد الطعام.

ومن الطريف أن بعض النصوص المسمارية تسجل حصص العمال من الطعام، فكان العامل يتقاضى كميات محددة من الشعير والزيت والتمر، بدلًا من النقود التي لم تكن قد ظهرت بعد بشكلها المعروف.

أما في الولائم الملكية والاحتفالات الدينية، فكانت الموائد تصبح أكثر تنوعًا، وتُقدم عليها اللحوم، والأسماك، والخبز الفاخر، والفواكه، في مشهد يختلف كثيرًا عن الوجبات البسيطة التي اعتاد عليها عامة الناس.

ورغم بساطة تلك الأطعمة، فإنها كانت كافية لبناء مجتمع استطاع أن يشيد المدن، ويحفر القنوات، ويترك وراءه واحدة من أعظم الحضارات في تاريخ الإنسانية

المدرسة السومرية حيث كان الكتبة يُصنعون

لم يكن كل طفل في سومر يتعلم القراءة والكتابة، فإتقان الكتابة المسمارية كان يحتاج إلى سنوات من التدريب والصبر، لذلك كانت المدارس تستقبل غالبًا أبناء العائلات القادرة أو من سيعملون في إدارة الدولة والمعابد.

وكان السومريون يطلقون على المدرسة اسم "بيت الألواح"، لأن التلميذ يقضي معظم يومه بين الألواح الطينية، يكتب عليها، ثم يمحوها، ويعيد الكتابة مرة بعد أخرى حتى يتقن رسم العلامات المسمارية.

كان يوم الدراسة يبدأ مبكرًا. يجلس التلاميذ أمام معلميهم، وكل واحد يحمل لوحًا من الطين الرطب وقلمًا مصنوعًا من القصب، يضغط بطرفه على الطين ليشكل العلامات المسمارية. ولم تكن المهمة سهلة، فخطأ صغير في زاوية العلامة قد يغيّر معنى الكلمة كلها.

ولم يقتصر التعليم على الكتابة، بل درس التلاميذ الحساب، وقوائم الكلمات، وأسماء المدن والأنهار، والعقود التجارية، والأناشيد الدينية، حتى يصبح الكاتب قادرًا على إدارة شؤون الدولة أو العمل في المعبد أو تسجيل معاملات التجار.

ومن أجمل ما وصلنا عن تلك المدارس نصوص كتبها التلاميذ أنفسهم، تصف حياتهم اليومية. ففي أحدها يروي طالب كيف تأخر عن المدرسة، فوبخه المعلم وعاقبه بالضرب. وفي نص آخر يشكو طالب من كثرة المعلمين، فيقول إن كل واحد منهم وجد سببًا لمعاقبته في اليوم نفسه!

وتخبرنا هذه النصوص أن الانضباط كان جزءًا أساسيًا من التعليم، وأن العقاب الجسدي لم يكن أمرًا نادرًا، وهو ما يجعل يوم الطالب السومري يبدو مألوفًا في بعض جوانبه، رغم مرور آلاف السنين لكن هذا الجهد لم

يكن يذهب سدى فالكاتب في سومر كان يحظى بمكانة اجتماعية مرموقة، لأنه يمتلك مهارة لا يجيدها معظم الناس. وكان الملوك والكهنة والتجار يعتمدون عليه في كتابة الرسائل، وتسجيل القوانين، وإحصاء المحاصيل، وتوثيق العقود، حتى أصبح الكتبة من أهم أركان الإدارة في الحضارة السومرية.

ولولا هؤلاء الكتبة، لما وصلت إلينا أخبار كلكامش، ولا أسماء الملوك، ولا تفاصيل الحياة التي نحاول اليوم أن نعيد اكتشافها من بين آلاف الألواح الطينية.

الزقورات السلالم التي ارتفعت نحو السماء

حين كان المسافر يقترب من مدينة سومرية، كان أول ما يلفت نظره بناء شاهق يرتفع فوق البيوت كلها لم يكن قصر الملك بل الزقورة.

كانت الزقورة بناءً ضخمًا يتألف من عدة طبقات ترتفع فوق بعضها بعضًا، حتى تبدو كأنها جبل صنعه الإنسان بيديه. وفي أعلى البناء كان يُقام معبد صغير مخصص للإله الحامي للمدينة.

ورغم أن كثيرين يظنون أن الزقورات كانت أماكن يسكنها الكهنة أو الملوك، فإن وظيفتها الأساسية كانت دينية. فقد اعتقد السومريون أن ارتفاع المعبد يجعل المكان أقرب إلى الآلهة، ولذلك بُني في أعلى نقطة داخل المدينة. ولم تكن جميع الزقورات متشابهة.

فلكل مدينة زقورتها الخاصة، ولكل زقورة إلهها الذي كرست له. ففي أور شُيدت الزقورة تكريمًا للإله نانا، إله القمر، بينما حملت مدن أخرى زقورات مخصصة لآلهتها المحلية.

وكان بناء زقورة واحدة يحتاج إلى جهد هائل. فقد استُخدمت ملايين اللبنات الطينية، وربطت بطبقات من القار (الزفت) الطبيعي لحمايتها من مياه الأمطار والرطوبة، وهو ما يفسر بقاء أجزاء منها حتى يومنا هذا.

ومن أشهر هذه الأبنية زقورة أور، التي ما تزال قائمة في محافظة ذي قار جنوب العراق، وتُعد من أفضل الزقورات حفظًا. وعندما يقف الزائر أمام درجاتها العريضة، يصعب عليه أن يتخيل أن هذا البناء شُيد قبل أكثر من أربعة آلاف عام، بأدوات بسيطة، ودون آلات حديثة. كما صمموا قنوات صغيرة لتصريف المياه، وهي فكرة هندسية متقدمة بالنسبة إلى ذلك العصر

ولم تكن الزقورة مجرد مبنى ديني، بل كانت رمزًا لهوية المدينة. فكما نربط اليوم بعض المدن بأبراجها أو معالمها الشهيرة، كان أهل سومر يربطون مدينتهم بزقورتها، لأنها كانت أول ما يراه القادم من بعيد، وآخر ما يختفي عن نظره عند الرحيل.

المقبرة الملكية في أور كنز خرج من باطن الأرض

في عام ١٩٢٢، وصل عالم الآثار البريطاني ليونارد وولي إلى موقع مدينة أور، المعروف اليوم باسم تل المقير في محافظة ذي قار جنوب العراق. لم يكن يتوقع أن يقوده الحفر إلى واحد من أعظم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين فبعد سنوات من التنقيب، عثر على المقبرة الملكية، وهي مجموعة من القبور التي دُفن فيها ملوك ونبلاء سومر قبل نحو أربعة آلاف وخمسمئة عام. لكن أكثر القبور إثارة كان قبر امرأة عُرفت باسم الملكة بوابي وعلى عكس كثير من الملوك الذين لم يبقَ من قبورهم إلا القليل، وُجد قبر بوابي شبه سليم، فكشف عن ثروة مذهلة. فقد عثر المنقبون على تيجان من الذهب، وأقراط وعقود مرصعة باللازورد والعقيق، وأمشاط ذهبية، وأوانٍ فاخرة، وآلات موسيقية، وأختام أسطوانية نُقشت عليها مشاهد دقيقة. ولم يكن الذهب وحده هو ما أدهش العلماء.

فقد وُجد داخل بعض القبور عدد من الخدم والحراس والموسيقيين مدفونين إلى جانب أصحابها. ويرى كثير من الباحثين أن هؤلاء دُفنوا ليخدموا الملك أو الملكة في العالم الآخر، وهو ما يعكس اعتقاد السومريين بأن الحياة تستمر بعد الموت بصورة ما.

ومن بين جميع المكتشفات، برزت قطعة أصبحت رمزًا للحضارة السومرية القيثارة الذهبية. ولم تكشف المقبرة الملكية عن ثراء الملوك فقط، بل كشفت أيضًا عن براعة الحرفيين السومريين. فكل قطعة عُثر عليها، من

الحلي إلى الآلات الموسيقية، أظهرت مستوى متقدمًا من الدقة والذوق الفني، حتى إن بعضها يبدو وكأنه صُنع بأدوات حديثة، رغم أنه يعود إلى فجر التاريخ.

لقد غيّر هذا الاكتشاف نظرة العالم إلى سومر، فلم تعد تُعرف فقط بأنها مهد الكتابة، بل أيضًا بأنها حضارة امتلكت فنًا راقيًا، وصناعة متقنة، وطقوسًا جنائزية معقدة ما زالت تثير فضول الباحثين حتى اليوم.

القيثارة الذهبية موسيقى عبرت آلاف السنين

من بين جميع الكنوز التي خرجت من المقبرة الملكية في أور، كانت هناك قطعة سرقت أنظار علماء الآثار قبل غيرها. إنها القيثارة الذهبية.

لم تكن مجرد آلة موسيقية، بل تحفة فنية تكشف مقدار الإبداع الذي وصل إليه صناع سومر.

صُنعت واجهتها من الذهب، وزُينت برأس ثور ذي لحية من حجر اللازورد الأزرق، بينما استُخدم الصدف والأحجار الملونة لتشكيل مشاهد دقيقة على صندوقها الخشبي. والأغرب من ذلك أن هذه المشاهد لا تصور حياة البشر فقط، بل تظهر حيوانات تعزف الموسيقى، وتحمل الطعام، وتشارك في الولائم، وهي صور يعتقد الباحثون أنها ترمز إلى أفكار دينية أو أسطورية، لكن معناها الكامل ما زال موضع نقاش.

وتشير الدراسات إلى أن الموسيقى كانت جزءًا مهمًا من الحياة السومرية. فقد عُزفت الألحان في المعابد أثناء الطقوس الدينية، وفي القصور خلال الاحتفالات، كما رافقت بعض المراسم الجنائزية، ولهذا لم يكن غريبًا أن تُدفن القيثارة مع أصحاب القبور

ولم يصلنا صوت تلك القيثارة، لكن علماء الآثار استطاعوا، اعتمادًا على شكلها وعدد أوتارها، صنع نماذج حديثة تحاكيها، فعادت ألحانها لتُسمع من جديد بعد صمت دام آلاف السنين.

واليوم، عندما ينظر الزائر إلى هذه القيثارة في المتحف، قد يراها مجرد قطعة أثرية جميلة، لكن الحقيقة أنها شاهد صامت على شعب لم يكتفِ ببناء المدن وابتكار الكتابة، بل عرف أيضًا كيف يحول الخشب والذهب والأوتار إلى موسيقى تملأ المعابد والقصور.

كيف نظر السومريون إلى الآلهة؟

كان السومريون يؤمنون بأن العالم لا يسير وحده، بل تديره قوى إلهية تتحكم في السماء والأرض والأنهار والفصول والرياح وحتى مصير الملوك.

ولم يتخيلوا الآلهة على هيئة قوى غامضة فحسب، بل رأوا أنها تشبه البشر في كثير من الصفات؛ فهي تفرح وتغضب، وتحب وتكره، وتتنافس فيما بينها، لكنها تمتلك قوة لا يملكها الإنسان.

ولهذا السبب، لم يكن المعبد مجرد مكان للصلاة، بل اعتُبر بيت الإله داخل المدينة. وكان الكهنة يقدمون فيه الخبز والتمر واللحوم والبخور، لا لأن الآلهة تحتاج إلى الطعام، بل لأن السومريين رأوا في هذه القرابين علامة احترام ووفاء للإله الذي يحمي مدينتهم.

ولم تكن جميع المدن تعبد الإله نفسه بالدرجة ذاتها. فلكل مدينة إله تعدّه حاميها الأول، وتفخر بأن معبده هو الأعظم. ولذلك، كانت المنافسة بين المدن تمتد أحيانًا إلى الجانب الديني، إذ كان انتصار مدينة على أخرى يُفسَّر أحيانًا على أنه دليل على أن إلهها قد منحها النصر.

وكان الملك، في نظر السومريين، لا يحكم لأنه الأقوى فقط، بل لأنه يؤدي مهمة كلفته بها الآلهة. لذلك نقرأ في كثير من النقوش أن الملك يبدأ إنجازاته بعبارات مثل: "بأمر الإله" أو "بإرادة الإله"، تأكيدًا أن سلطته تستمد مشروعيتها من السماء.

ولأن الآلهة كانت حاضرة في كل تفاصيل الحياة، لم يبدأ السومريون مشروعًا كبيرًا، أو يبنوا معبدًا، أو يخرجوا إلى حرب، إلا بعد أداء الطقوس الدينية وطلب البركة، معتقدين أن النجاح لا يعتمد على قوة الإنسان وحدها، بل أيضًا على رضا الآلهة عنه

إنانا الإلهة التي تحدت العالم السفلي

إذا كان هناك اسم ارتبط بالأساطير السومرية أكثر من غيره، فهو إنانا. فقد كانت من أكثر الآلهة حضورًا في حياة السومريين، وارتبط اسمها بالحب والخصوبة والجمال، لكنها في الوقت نفسه كانت إلهة للحرب والانتصار، وهو مزيج قد يبدو غريبًا اليوم، لكنه يعكس اعتقاد السومريين بأن القوة والحنان يمكن أن يجتمعا في شخصية واحدة.

كان مركز عبادتها الرئيس في مدينة أوروك، حيث شُيد لها معبد ضخم، وكانت تُقام لها احتفالات دينية كبيرة، ويعدها أهل المدينة حاميتهم.

لكن أكثر ما خلد اسم إنانا لم يكن معبدها، بل الأسطورة التي تروي رحلتها إلى العالم السفلي.

رحلة إلى مملكة الموت

تبدأ الأسطورة عندما قررت إنانا النزول إلى العالم السفلي، المملكة التي تحكمها أختها إريشكيجال، سيدة الموت.

ولا تذكر النصوص سببًا واحدًا متفقًا عليه لهذه الرحلة؛ فبعضها يربطها برغبة إنانا في توسيع نفوذها، بينما يرى باحثون أن القصة تحمل رموزًا دينية تتعلق بالموت والتجدد ودورة الحياة.

وقبل أن تغادر، استدعت خادمتها المخلصة نينشوبور، وقالت لها:

"إذا مضت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ولم أعد، فاذهبي إلى الآلهة واطلبي منهم إنقاذي."

ثم ارتدت أفخر ثيابها، وتزينت بتاجها، وقلائدها، وخواتمها، وكل شارات سلطانها، وانطلقت نحو بوابات العالم السفلي.

البوابات السبع

عندما وصلت إلى البوابة الأولى، أوقفها الحارس قال لها:

"من يدخل مملكة الموت، لا يدخل كما كان." وطلب منها أن تخلع تاجها.

امتثلت إنانا، ودخلت.

وعند البوابة الثانية، نُزع منها عقدها.

وفي الثالثة، سُحبت منها حليها.

ومع كل بوابة كانت تفقد قطعة من زينتها أو رمزًا من رموز سلطانها، حتى عبرت البوابات السبع، ووصلت إلى أختها مجردة من كل مظاهر القوة.

لم تكن البوابات السبع مجرد أبواب، بل كانت رمزًا لفقدان الإنسان ما يملكه عندما يواجه الموت، فلا يبقى معه تاج ولا ذهب ولا سلطة. وهناك كانت تنتظرها إريشكيجال

أمام عرش إريشكيجال

دخلت إنانا قاعة العرش بعد أن اجتازت البوابات السبع، وقد فقدت تاجها، وحليها، وملابسها الملكية، وكل ما كان يميزها بوصفها سيدة السماء.

كانت أختها إريشكيجال تجلس على عرش العالم السفلي، تحيط بها قضاة الموت، الذين كانوا يُعرفون في النصوص السومرية باسم الأنونا. لم يكن ذلك المكان يشبه معابد الأرض أو قصورها، بل كان عالمًا يسوده الصمت والظلال، حيث لا يعود من يدخله بسهولة. نظرت إريشكيجال إلى أختها بغضب، فقد رأت في نزولها إلى مملكتها تحديًا لسلطتها.

وتقول الأسطورة إن قضاة العالم السفلي أصدروا حكمهم على إنانا، ثم سلطوا عليها "نظرة الموت"، وهي نظرة أسطورية كان يُعتقد أنها تسلب الحياة ممن تقع عليه. في لحظة واحدة سقطت إنانا بلا حراك.

ثم عُلّق جسدها على وتد داخل العالم السفلي، وبقي هناك ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. الخادمة التي لم تنسَ وعدها

في العالم العلوي، انتظرت نينشوبور عودة سيدتها، لكن الأيام مرت ولم تظهر إنانا. تذكرت وصيتها الأخيرة، فارتدت ثياب الحداد، وبدأت تتنقل بين الآلهة، تستغيث بهم لإنقاذها. طرقت أبواب أكثر من إله، لكن بعضهم رفض التدخل، لأن قوانين العالم السفلي كانت صارمة، ومن يدخل إليه لا يخرج منه بسهولة. وأخيرًا، وصلت إلى إنكي، إله الحكمة والمياه العذبة.

استمع إليها بصمت، ثم أدرك أن اختفاء إنانا لن يكون مجرد مأساة لإلهة واحدة، بل سيخل بتوازن العالم كله. فابتكر حيلة لم تخطر على بال أحد.

خلق مخلوقين صغيرين من تحت أظافره، لا يُعدان من البشر ولا من الآلهة، ولذلك لا تسري عليهما قوانين العالم السفلي كما تسري على غيرهما.

وأعطاهما ماء الحياة وطعام الحياة، وأرسلهما إلى مملكة الموت، طالبًا منهما ألا يقاتلا، ولا يهددا، بل يستخدما الحكمة والصبر.

كانت تلك بداية خطة ستغير مصير إنانا، لكنها في الوقت نفسه ستفرض عليها ثمنًا لم تكن تتوقعه أبدًا.

العودة إلى الحياة ولكن بثمن

وصل المخلوقان اللذان أرسلهما إنكي إلى العالم السفلي، فوجدا إريشكيجال تتلوى من الألم، إذ تصفها الأسطورة بأنها كانت تعاني آلامًا شديدة تشبه آلام الولادة. وعلى خلاف الجميع، لم يحاولا تحديها أو تهديدها، بل جلسا إلى جوارها، وراحا يرددان كلمات المواساة، ويشاركانها ألمها.

تفاجأت إريشكيجال بهذا التصرف. فلم يسبق أن عاملها أحد بهذه الرحمة.

ولما هدأ غضبها، قالت لهما: "اطلبا ما تشاءان، ولن أرد لكما طلبًا."

لم يطلبا ذهبًا، ولا سلطة، ولا كنوز العالم السفلي. بل قالا:

"أعيدي إلينا جسد إنانا."

وافقت إريشكيجال على مضض فأخذا جسد إنانا، ورشاه بماء الحياة وطعام الحياة، فعادت الروح إليها، ونهضت من جديد. لكن فرحتها لم تدم طويلًا.

فقد أوقفها قضاة العالم السفلي وقالوا:

"لا أحد يغادر هذا المكان دون أن يترك بديلًا عنه."

كانت تلك إحدى القواعد التي لا يستطيع أحد، حتى الآلهة، مخالفتها.

خرجت إنانا من العالم السفلي، لكن خلفها سارت كائنات مرعبة تُعرف في النصوص باسم الشياطين الجالا، مهمتها أن تجد الشخص الذي سيحل محلها.

البحث عن البديل

بدأت إنانا رحلتها في مدن سومر. رأت بعض أتباعها يبكون عليها، ويلبسون ثياب الحداد، فرفضت أن تسلمهم إلى الجالا، لأنهم ظلوا أوفياء لها. ثم وصلت إلى قصر زوجها ديموزي وهنا كانت المفاجأة.

لم يكن ديموزي حزينًا، ولم يكن يرتدي ثياب الحداد، بل كان جالسًا على عرشه، مرتديًا أفخر ملابسه، وكأن شيئًا لم يحدث شعرت إنانا بالغضب.

كيف يمكن لزوجها أن يحتفل، بينما كانت هي سجينة في مملكة الموت؟

فنظرت إليه، وأشارت إلى الجالا قائلة: "خذوه."

وهكذا، أصبح ديموزي هو البديل الذي سيدخل العالم السفلي مكانها لكن القصة لم تنتهِ عند هذا الحد.

ديموزي الإله الذي عاد مع الربيع

عندما اقتادت كائنات الجالا ديموزي إلى العالم السفلي، لم تقف القصة عند هذا الحد.

تقول الأسطورة إن أخته جيشتينانا حزنت عليه حزنًا شديدًا، ولم تحتمل أن يبقى أسيرًا في مملكة الموت إلى الأبد. فتوسلت إلى آلهة العالم السفلي أن تجد حلًا يخفف عنه. وبعد جدال طويل، صدر قرار غريب.

يقضي بأن يقضي ديموزي نصف السنة في العالم السفلي، بينما تقضي أخته النصف الآخر مكانه.

وهكذا، عندما يعود ديموزي إلى الأرض، تعود معه الخضرة، وتمتلئ الحقول بالزرع، وتزهر الأشجار، وتدب الحياة في الطبيعة.

وعندما يحين موعد عودته إلى العالم السفلي، تذبل النباتات، وتجف المراعي، ويحل موسم القحط.

وبهذه الأسطورة حاول السومريون تفسير التغير الذي يشاهدونه كل عام في الطبيعة، فربطوا بين دورة الفصول، وموت ديموزي وعودته من جديد.

ولهذا السبب، لم يكن ديموزي مجرد إله للخصوبة والرعي، بل أصبح رمزًا لتجدد الحياة بعد الموت، ولعودة الأمل بعد الجفاف.

وكانت بعض المدن تقيم طقوسًا سنوية يشارك فيها الناس بالبكاء والإنشاد حدادًا على رحيل ديموزي، ثم تتحول تلك الطقوس إلى احتفالات عند عودته، وكأن الطبيعة نفسها تستعيد أنفاسها.

واليوم، يرى الباحثون في هذه الأسطورة محاولة شعرية من الإنسان القديم لفهم سر تعاقب الفصول، مستخدمًا اللغة التي عرفها آنذاك لغة الأسطورة.

وبذلك تنتهي واحدة من أكثر القصص تأثيرًا في المعتقدات السومرية، وهي القصة التي أثرت لاحقًا في أساطير شعوب عديدة في الشرق الأدنى القديم، وإن اختلفت الأسماء والتفاصيل.

إنكي الإله الذي منح البشر أسرار الحضارة

كان السومريون ينظرون إلى إنكي بوصفه أحد أكثر الآلهة حكمة. وكان معبده الرئيس في مدينة أريدو، أقدم المدن السومرية، حيث اعتقد الناس أنه يقيم في عالم مائي عذب يُعرف باسم الأبزو، وهو البحر العذب الكامن تحت الأرض، والذي كانوا يرونه مصدر الحياة والخصب.

لكن أشهر الأساطير التي ارتبطت باسمه لم تتحدث عن حرب، ولا عن عقاب، بل عن كيف وصلت الحضارة إلى البشر.

كنوز الحضارة

تروي الأسطورة أن إنكي كان يحتفظ بمجموعة من القوى والشرائع الإلهية عُرفت باسم "المي" (Me).

ولم تكن "المي" كنوزًا من ذهب أو فضة، بل كانت تمثل كل ما يجعل الحياة الإنسانية ممكنة ومنظمة فمن بينها:

الملكية – القضاء – الحكمة – الكتابة – الموسيقى – الحِرَف – البناء – الكهانة – العدالة - وحتى بعض الصفات الإنسانية، كالصدق والشجاعة.

كان السومريون يعتقدون أن هذه القوى لم يخترعها البشر بأنفسهم، بل مُنحت لهم من عالم الآلهة.

وليمة غير متوقعة

في أحد الأيام، زارت إنانا الإله إنكي في أريدو استقبلها بحفاوة، وأقام لها وليمة كبيرة، وقدمت فيها الأطعمة والمشروبات.

وتقول الأسطورة إن إنكي، بعد أن أكثر من الشراب، أخذ يمنح إنانا واحدة تلو الأخرى من قوى المي، حتى أصبحت بحوزتها معظم أسرار الحضارة ولم تنتظر إنانا طويلًا حملت "المي"، وركبت قاربها، وأبحرت مسرعة نحو مدينة أوروك.

وعندما أفاق إنكي، أدرك أنه منحها أعظم ما يملك وكانت إنانا قد أصبحت بعيدة وهكذا بدأت مطاردة غريبة بين إله الحكمة، والإلهة التي أرادت أن تجعل مدينتها أعظم مدن سومر

عندما حاول إنكي استعادة "المي"

ما إن غادرت إنانا مدينة أريدو، حتى بدأ أثر الشراب يزول عن إنكي نظر حوله، ثم سأل مساعديه: "أين ألواح المي؟" ساد الصمت.

أدرك الجميع أن إنانا غادرت وهي تحمل معها أعظم ما تملكه الآلهة من قوى تمنح الحضارة نظامها غضب إنكي، وأمر خادمه الأمين إيسيمود أن ينطلق خلفها وقال له: "أدركها قبل أن تصل إلى أوروك، وأعد إليّ المي."

انطلق إيسيمود مسرعًا، لكنه وجد إنانا متمسكة بما حصلت عليه، رافضة أن تعيده. وتروي الأسطورة أن إنكي لم يرسل رسولًا واحدًا فقط، بل حاول مرارًا استعادة "المي"، وفي كل مرة كانت إنانا تنجح في الإفلات منه، وتواصل رحلتها عبر الأنهار حتى اقتربت من أوروك.

ولم يكن الصراع بينهما صراعًا على كنز أو عرش، بل على من تكون المدينة التي ستصبح مركز الحضارة.

انتصار أوروك

عندما وصلت إنانا إلى أوروك، استقبلها أهل المدينة بالاحتفال. ثم أعلنت أن "المي" أصبحت في أوروك، ومنها ستنتشر الفنون، والكتابة، والموسيقى، والحِرف، والإدارة، وكل ما يجعل المدينة مزدهرة.

وعندما أدرك إنكي أن الوقت قد فات، هدأ غضبه.

وتقول بعض نسخ الأسطورة إنه قبل بالأمر الواقع، وبارك انتقال "المي"، لأن الهدف في النهاية لم يكن احتكار الحضارة، بل أن تصل إلى البشر.

ماذا تعني هذه الأسطورة؟

لا يعتقد المؤرخون أن السومريين كانوا يقصدون بهذه القصة حادثة تاريخية حقيقية، بل يرون أنها تفسير رمزي للمكانة التي وصلت إليها مدينة أوروك. فبدل أن يقولوا إن أوروك ازدهرت بسبب التجارة أو الإدارة الجيدة، صاغوا حكاية جميلة تقول إن أسرار الحضارة نفسها انتقلت إليها بإرادة الآلهة ولهذا، فإن "المي" تُعد من أكثر الأفكار تميزًا في الفكر السومري، لأنها لا تمثل أشياء مادية، بل تمثل القوانين والمهارات والقيم التي يقوم عليها المجتمع.

وبهذه الأسطورة أراد السومريون أن يقولوا إن الحضارة لا تُبنى بالحجارة وحدها، بل بالعلم، والنظام، والفنون، والعدل، وكل ما يجعل الإنسان يرتقي بحياته.

إنليل الإله الذي كانت كلمته قانونًا

إذا كان إنكي يمثل الحكمة، فإن إنليل كان يمثل السلطة.

آمن السومريون بأن إنليل هو سيد الرياح والهواء، لكنه كان أيضًا صاحب القرار بين الآلهة، حتى إن كثيرًا من الملوك كانوا يفتتحون نقوشهم بعبارات تؤكد أنهم يحكمون بإرادة إنليل، لأن رضاه كان يعني الشرعية، وغضبه كان يعني سقوط الممالك.

وكان مركز عبادته في مدينة نيبور، وهي مدينة لم تكن دائمًا الأقوى عسكريًا، لكنها كانت من أقدس مدن سومر. وكان ملوك المدن المختلفة يحرصون على كسب احترام كهنة نيبور، لأن الاعتراف الديني كان يمنح حكمهم مكانة كبيرة بين الناس.

لكن أكثر الأساطير التي ارتبطت بإنليل ليست قصة حرب بل قصة حب انتهت بعقوبة.

إنليل ونينليل

تروي الأسطورة أن إنليل وقع في حب الإلهة نينليل، وكانت شابة جميلة تعيش مع والدتها.

وفي إحدى الروايات السومرية، التقى بها عند ضفاف النهر، ثم أقام معها علاقة أثارت غضب مجمع الآلهة، الذي رأى أن ما حدث يستوجب العقاب.

فصدر الحكم بنفي إنليل إلى العالم السفلي وقبل إنليل بالحكم، وغادر عالم الأحياء. لكن نينليل، التي كانت تحمل طفلًا منه، رفضت أن تتركه يواجه مصيره وحده، وسارت خلفه إلى العالم السفلي.

وهناك، تبدأ واحدة من أغرب الأساطير السومرية.

فلكي يضمن إنليل عودة ابنه إلى عالم الأحياء، تنكر أكثر من مرة في هيئة حارس أو ملاح أو بواب، وفي كل مرة تنجح نينليل في التعرف إليه، وينجبان طفلًا جديدًا.

وتقول الأسطورة إن هؤلاء الأبناء بقوا في العالم السفلي بدلًا من الابن الأول، حتى يتمكن نانا، إله القمر، من الصعود إلى السماء، ويضيء الليل للبشر.

ماذا أراد السومريون أن يقولوا؟

قد تبدو هذه القصة غريبة للقارئ المعاصر، لكنها كانت بالنسبة إلى السومريين تفسيرًا أسطوريًا لولادة بعض الآلهة، ولفكرة التوازن بين العالم العلوي والعالم السفلي.

كما أنها تُظهر أن حتى كبار الآلهة لم يكونوا فوق القانون، فمجمع الآلهة استطاع أن يحاكم إنليل ويعاقبه، وهو تصور يختلف عن كثير من الأساطير الأخرى، ويعكس أهمية العدالة والنظام في الفكر السومري.

ومن هذه الأسطورة، أصبح نانا، ابن إنليل ونينليل، أحد أهم الآلهة في سومر، لتبدأ معه حكاية جديدة ترتبط بالقمر، والليل، ومدينة أور.

نانا الإله الذي أضاء ليالي سومر

عندما كان الليل يهبط على سهول بلاد الرافدين، لم يكن السومريون ينظرون إلى القمر على أنه جرم يدور في السماء فحسب، بل كانوا يرونه الإله نانا، الذي يجوب السماء كل ليلة في رحلته الهادئة، مراقبًا المدن والأنهار والحقول.

وكانت مدينة أور أعظم مراكز عبادته، حتى إن أشهر معالمها، زقورة أور، شُيدت تكريمًا له. وكان أهل المدينة يعتقدون أن نانا يحرسهم من أعلى السماء، ويمنحهم الطمأنينة في ظلمة الليل.

وتروي إحدى الأساطير أن نانا، بعد أن غادر العالم السفلي، صعد إلى السماء ليبدأ رحلته التي لا تنتهي. ومنذ ذلك الحين، يظهر هلالًا رقيقًا، ثم يكتمل بدرًا، ثم يبدأ بالتناقص حتى يختفي، قبل أن يعود من جديد.

ورأى السومريون في هذه الدورة رمزًا للموت والبعث والتجدد، لذلك لم يخافوا من اختفاء القمر، لأنهم كانوا يؤمنون بأنه سيعود كما عاد في كل مرة. ولم تقتصر مكانة نانا على الأساطير، بل كان له دور عملي في حياة الناس. فقد اعتمد السومريون على حركة القمر في تنظيم الشهور، وتحديد مواعيد الأعياد والاحتفالات والطقوس الدينية، كما راقب الكهنة أطواره لتسجيل الزمن بدقة.

وكان الكهنة يصعدون إلى أعلى الزقورات ليراقبوا السماء ليلًا، يسجلون ظهور الهلال واكتمال البدر، وهو ما أسهم في تطور علم الفلك في بلاد الرافدين خلال القرون اللاحقة.

وكان يُصوَّر أحيانًا بهلال يعلو رأسه، فأصبح الهلال رمزًا يميزه في النقوش والأختام الأسطوانية، حتى صار الناس يعرفون الإله من هذا الرمز دون الحاجة إلى كتابة اسمه.

وهكذا، لم يكن نانا إلهًا للقمر فحسب، بل كان رمزًا للزمن، وللنظام الذي يحكم تعاقب الليالي والأشهر، وهو النظام الذي اعتمدت عليه حياة السومريين في عباداتهم وزراعتهم وتنظيم مجتمعهم.

أوتو إله الشمس والعدالة

مع بزوغ الفجر كل يوم، كان السومريون يعتقدون أن الإله أوتو يبدأ رحلته في السماء، ناشرًا النور فوق المدن والحقول والأنهار. ولم تكن الشمس بالنسبة إليهم مصدرًا للدفء والضياء فحسب، بل عينًا ترى كل شيء، فلا يختبئ عنها ظلم، ولا يفلت منها كاذب.

لهذا ارتبط أوتو بالعدالة والقضاء. وكان الناس يؤمنون بأنه يشهد على العقود والعهود، ويكشف الحقيقة عندما يعجز البشر عن معرفتها. ولهذا السبب أيضًا، كان القضاة والكهنة يستحضرون اسمه عند الفصل في النزاعات، طلبًا للعدل والإنصاف.

وتروي الأساطير أن أوتو كان يقطع السماء نهارًا بعربته المضيئة، ثم يعبر العالم السفلي ليلًا ليعود مع شروق يوم جديد، وهكذا استمرت رحلته الأبدية دون انقطاع.

ولم يكن أوتو بعيدًا عن بقية الأساطير السومرية، فقد ظهر في ملحمة كلكامش عندما طلب البطل عونه قبل مواجهة الوحش خمبابا، فاستجاب له، وأرسل رياحًا قوية أربكت الوحش وساعدت كلكامش وإنكيدو على

الانتصار. ولهذا ارتبط أوتو في أذهان السومريين بحماية أصحاب الحق ومنحهم القوة في مواجهة الظلم.

وكان مركز عبادته الرئيس في مدينتي لارسا وسيبار، حيث شُيدت له المعابد، وتُليت الأدعية مع شروق الشمس كل صباح. وكانت أشعة الشمس الأولى تُعد لحظة مباركة لبداية الأعمال، وعقد الاتفاقات، وإعلان الأحكام.

ولم يكن اختيار الشمس رمزًا للعدالة أمرًا عشوائيًا. فكما أن نورها يكشف ما تخفيه الظلمة، رأى السومريون أن العدالة الحقيقية تكشف الحقائق مهما حاول الناس إخفاءها، ولذلك بقي أوتو رمزًا للنزاهة والصدق في معتقداتهم.

وبعد آلاف السنين، انتقلت هذه الفكرة إلى حضارات بلاد الرافدين اللاحقة، فأصبح الإله المعروف عند البابليين والآشوريين باسم شمش يؤدي الدور نفسه بوصفه إله الشمس والعدل، وهو دليل على أن كثيرًا من المعتقدات السومرية لم تختفِ، بل استمرت بأسماء جديدة عبر العصور.

ننـهورساج أم الآلـهة وأم البشر

من بين الآلهة التي حظيت بمكانة كبيرة في المعتقدات السومرية، برزت ننـهورساج، التي عُرفت بألقاب عديدة، منـها "سيدة الجبل" و"الأم العظيمة". ورأى فيـها السومريون رمزًا للأرض التي تمنح الحياة، وتنبت الزرع، وتحتضن الإنسان منذ ولادته حتى وفاته.

وترتبط ننـهورساج بإحدى أشهر الأساطير السومرية، وهي الأسطورة التي تفسر كيف ظهر الإنسان على الأرض.

تروي الرواية أن الآلهة في بداية الخليقة كانت تقوم بالأعمال الشاقة بنفسها؛ تحفر القنوات، وتشيد السدود، وتزرع الأرض. ومع مرور الزمن، تعبت من هذا العمل، وقررت أن تخلق مخلوقًا يتولى هذه المهام.

اجتمع إنكي، إله الحكمة، مع ننهورساج، واتفقا على صنع الإنسان من الطين الممزوج بماء الحياة. ثم أخذت ننهورساج تشكل الطين بيديها، بينما منح إنكي هذا الجسد القدرة على الحياة.

وعندما اكتمل الخلق، أصبح الإنسان مسؤولًا عن عمارة الأرض، وزراعة الحقول، وبناء المدن، وخدمة المعابد.

ولم يكن الهدف من هذه الأسطورة تقديم تفسير علمي لبداية الإنسان، بل التعبير عن اعتقاد السومريين بأن الإنسان خُلق ليكون شريكًا في إعمار العالم، وأن الأرض والطين هما أصل الحياة.

وترتبط ننهورساج أيضًا بأسطورة أخرى مع إنكي. ففي إحدى الروايات، أكل إنكي نباتات مقدسة لم يكن من حقه لمسها، فغضبت ننهورساج ولعنته، فأصيب بآلام شديدة في أجزاء مختلفة من جسده.

لكنها عادت لاحقًا ورقّت لحاله، فخلقت عددًا من الآلهة، وكان كل إله منها مسؤولًا عن شفاء عضو من أعضائه، حتى تعافى بالكامل. وتعكس هذه القصة فكرة أن الدواء والشفاء، كما المرض، يدخلان في نظام الكون الذي تديره الآلهة.

ومن خلال هاتين الأسطورتين، ظهرت ننهورساج بوصفها رمزًا للأمومة والخلق والشفاء، لذلك احتلت مكانة مميزة بين آلهة سومر، وظلت تُذكر في النصوص الدينية لقرون طويلة، حتى بعد انتقال السلطة إلى الحضارات التي جاءت بعد السومريين

آن سيد السماء وأبو الآلهة

قبل أن يتولى إنليل إدارة شؤون العالم، وقبل أن تصبح إنانا أشهر آلهة سومر، كان السومريون يضعون في قمة مجمع الآلهة اسمًا واحدًا آن.

كان آن إله السماء، وأقدم الآلهة الكبرى في المعتقد السومري، ورأى فيه الناس الأب الذي انبثقت منه بقية الآلهة. ولم يكن يظهر كثيرًا في الأساطير، لأنه لم يكن إلهًا يتدخل في تفاصيل الحياة اليومية، بل كان يمثل السلطة العليا التي تنبثق منها بقية القوى الإلهية.

وكانت مدينة أوروك المركز الرئيس لعبادته، حيث شُيدت له المعابد منذ أقدم العصور، وغالبًا ما ذُكر اسمه إلى جانب الإلهة إنانا، التي أصبحت لاحقًا أشهر آلهة المدينة.

وتروي إحدى الأساطير أن السماء والأرض كانتا في بداية الخليقة جسدًا واحدًا، يجمعهما كيان واحد. ثم انفصلت السماء، التي أصبحت مملكة آن، عن الأرض، التي صارت عالم البشر والآلهة الأخرى. ومن هذا الانفصال بدأ النظام الذي عرفه الكون، وأصبح لكل إله دوره ومكانه.

ورغم أن آن لم يكن بطلًا للقصص الملحمية مثل كلكامش، ولا صاحب حيل ذكية مثل إنكي، فإن وجوده كان حاضرًا في معظم النصوص الدينية بوصفه المرجع الأعلى للسلطة الإلهية. فكثيرًا ما كانت الآلهة تجتمع لاتخاذ قرار مهم، ثم يُنسب هذا القرار في النهاية إلى إرادة آن أو بموافقته.

وكان السومريون يرون أن السماء ليست مجرد فضاء بعيد، بل عالم مقدس تنطلق منه أوامر الآلهة، ولهذا ارتبط اسم آن بالهيبة والوقار أكثر من ارتباطه بالمغامرات والأساطير.

ومع مرور الزمن، بقيت مكانة آن محفوظة في الديانة السومرية، حتى وإن أصبحت أدوار بعض الآلهة الأخرى أكثر حضورًا في القصص الشعبية. ولذلك، يمكن اعتباره الأب الروحي لمجمع الآلهة، والرمز الذي يبدأ منه النظام الإلهي في الفكر السومري.

إريشكيجال سيدة العالم السفلي

إذا كانت إنانا تمثل الحياة والحب والخصوبة، فإن أختها إريشكيجال كانت تحكم الجانب الآخر من الوجود عالم الموتى.

لم يكن السومريون ينظرون إلى العالم السفلي بوصفه مكانًا للعذاب أو المكافأة كما تصوره بعض الديانات اللاحقة، بل اعتقدوا أنه المصير الذي ينتهي إليه جميع البشر، ملوكًا كانوا أم فقراء.

وكانت إريشكيجال هي الحاكمة المطلقة لذلك العالم، فلا يجرؤ أحد على منازعتها سلطتها، حتى الآلهة نفسها كانت تتعامل مع مملكتها بحذر شديد.

وقد عرفناها سابقًا في أسطورة نزول إنانا إلى العالم السفلي، حين واجهت أختها وأصدرت قضاة العالم السفلي حكمهم عليها، لكن تلك الأسطورة ليست الوحيدة التي ذُكر فيها اسمها.

ففي أسطورة أخرى، قرر الإله نرجال، إله الحرب والأوبئة، أن ينزل إلى العالم السفلي بعد سلسلة من الأحداث التي أغضبت إريشكيجال.

وحذره الإله إنكي قبل رحيله، وقدم له نصائح دقيقة، أهمها ألا يجلس على عرش إريشكيجال، وألا يأكل أو يشرب في العالم السفلي، وألا يستسلم لأي إغراء، لأن قبول أي شيء هناك يعني أنه أصبح جزءًا من ذلك العالم.

وعندما وصل نرجال، التزم بالنصائح في البداية، لكن الأسطورة تروي أنه وقع في حب إريشكيجال، وبقي معها عدة أيام ثم عاد إلى عالم الأحياء.

غير أن إريشكيجال شعرت بأن رحيله ترك مملكتها خالية، وأرسلت رسولًا إلى مجمع الآلهة تطالب بإعادته، مهددة بأنها ستطلق أرواح الموتى إلى عالم الأحياء إن لم يستجيبوا لطلبها.

فعاد نرجال مرة أخرى إلى العالم السفلي، لكن هذه المرة لم يكن أسيرًا، بل أصبح شريكًا لإريشكيجال في حكم تلك المملكة.

ولا ينظر الباحثون إلى هذه الأسطورة على أنها قصة حب فحسب، بل يرون فيها محاولة لشرح التوازن بين قوى الحياة والموت، وأن الكون لا يستقيم بسيطرة أحدهما على الآخر.

ولهذا بقي اسم إريشكيجال مرتبطًا بالغموض والرهبة، فهي لم تكن إلهة شريرة كما قد يتخيل البعض، بل كانت تؤدي الدور الذي خُصص لها في نظام الكون، وتحرس العالم الذي سيصل إليه كل إنسان في نهاية رحلته.

الأنوناكي من هم حقًا؟

من أكثر الأسماء التي أسيء فهمها في العصر الحديث اسم الأنوناكي. فقد انتشرت حولهم روايات تربطهم بالكائنات الفضائية والأسرار الغامضة، حتى أصبح كثير من الناس يظنون أن هذا ما تقوله النصوص السومرية.

لكن الحقيقة مختلفة ففي النصوص الأصلية، كان الأنوناكي جماعة من الآلهة الكبار، يشكلون مجلسًا إلهيًا يجتمع لاتخاذ القرارات المتعلقة بالكون والآلهة والبشر.

وتختلف أعدادهم وأدوارهم من نص إلى آخر، لأن الأساطير السومرية لم تكن كتابًا واحدًا، بل مجموعة من الروايات التي كُتبت في أزمنة ومدن مختلفة. ولهذا قد يظهر بعضهم في قصة، ويغيب في أخرى.

وكانت مهمتهم، بحسب المعتقد السومري، المشاركة في إصدار الأحكام، وتنظيم شؤون العالم، وحضور الأحداث الكبرى التي تتعلق بالآلهة والبشر.

وقد ظهروا في أكثر من أسطورة، ومن أشهرها أسطورة نزول إنانا إلى العالم السفلي، حيث جلسوا بوصفهم قضاة يصدرون الأحكام، وكذلك في بعض روايات الطوفان، التي شاركوا فيها ضمن مجمع الآلهة الذي ناقش مصير البشر.

ومع مرور الزمن، انتقل اسم الأنوناكي إلى الحضارات الأكدية والبابلية والآشورية، لكن أدوارهم تغيرت تبعًا لتطور المعتقدات الدينية، شأنهم شأن كثير من الآلهة التي حملت أسماء جديدة أو اكتسبت صفات إضافية.

أما الأفكار المنتشرة اليوم، التي تزعم أن الأنوناكي كانوا زوارًا من كواكب أخرى أو أنهم أنشؤوا الحضارة البشرية، فلا تستند إلى النصوص المسمارية القديمة، بل ظهرت في القرن العشرين ضمن كتب ونظريات حديثة، ولم يقبلها علماء الآثار أو المختصون بتاريخ بلاد الرافدين.

ولذلك، فإن فهم الأنوناكي كما تصورهم السومريون يساعدنا على قراءة أساطيرهم كما أرادوها هم، لا كما أعادت الثقافة الحديثة رسمها.

وبهذا تكتمل صورة العالم الديني في سومر؛ عالم امتلأ بالآلهة والأساطير والرموز، وكان بالنسبة إلى السومريين وسيلة لفهم الكون، وتعاقب الفصول، والحياة، والموت، والأحداث التي لم يجد الإنسان القديم تفسيرًا لها إلا من خلال الحكاية والأسطورة.

التجارة كيف أصبحت سومر غنية رغم قلة مواردها؟

قد يظن القارئ أن أرضًا خصبة مثل جنوب بلاد الرافدين كانت تمتلك كل ما تحتاج إليه، لكن الحقيقة كانت مختلفة.

فالسومريون عاشوا في أرض وفيرة بالمياه والطين والقصب، لكنها كانت تفتقر إلى كثير من المواد الأساسية، مثل الأخشاب الجيدة، والأحجار الصلبة، والمعادن ولهذا اضطروا إلى البحث عنها خارج حدود بلادهم.

ومن هنا بدأت واحدة من أقدم شبكات التجارة في تاريخ العالم.

كانت السفن السومرية تبحر عبر الخليج العربي، بينما تسلك القوافل البرية طرقًا طويلة عبر الصحارى والجبال، حاملةً البضائع من بلاد بعيدة.

وتشير النصوص المسمارية إلى أن السومريين تعاملوا مع مناطق أطلقوا عليها أسماء مثل دلمون، التي يربطها معظم الباحثين بجزر البحرين والمناطق المجاورة، ومجان، التي يُعتقد أنها تقع في عُمان، وملوخا، التي يرى كثير من المؤرخين أنها تشير إلى حضارة وادي السند في باكستان وشمال غربي الهند اليوم ولم تكن هذه الرحلات سهلة.

فقد كانت السفن تواجه العواصف، بينما كانت القوافل تعبر مسافات طويلة معرضة للعطش وقطاع الطرق، ومع ذلك استمرت التجارة، لأنها كانت شريان الحياة بالنسبة إلى المدن السومرية.

وكان السومريون يستوردون أخشاب الأرز والعرعر لبناء القصور والمعابد، والنحاس لصناعة الأدوات والأسلحة، والذهب والفضة لصياغة الحلي، والأحجار الكريمة، مثل اللازورد القادم من جبال أفغانستان، والعقيق الذي زين به الحرفيون كثيرًا من أعمالهم.

أما في المقابل، فكانوا يصدرون المنسوجات الصوفية، والزيوت، والتمر، والحبوب، والأواني الفخارية، والمصنوعات التي اشتهرت بها ورشهم.

ولم تكن التجارة مجرد تبادل للسلع، بل كانت طريقًا انتقلت عبره الأفكار والمهارات والفنون. فكل سفينة كانت تحمل معها شيئًا أكثر قيمة من البضائع كانت تحمل خبرات الشعوب وثقافاتها.

ولهذا لم تكن سومر حضارة منعزلة، بل كانت جزءًا من عالم واسع، ربطت بين أطرافه الأنهار والبحار والقوافل، وأسهمت في قيام علاقات تجارية وثقافية تركت أثرها في حضارات الشرق القديم لقرون طويلة.

الحرفيون السومريون الفن بأيدي الصناع

لم يكن ازدهار المدن السومرية قائمًا على الزراعة وحدها، بل كان خلف كل مدينة عشرات الحرفيين الذين حوّلوا المواد الخام إلى أدوات وأعمال فنية ما زالت تبهر العالم حتى اليوم.

ففي ورش الحدادين، كانت تُصنع السكاكين، والرماح، ورؤوس السهام، والأدوات الزراعية من النحاس، ثم من البرونز في الفترات اللاحقة. ولم تكن هذه الأدوات مجرد وسائل للعمل، بل كانت دليلًا على تطور مهارات الصناع السومريين.

أما الفخّار، فكان حاضرًا في كل بيت تقريبًا. صنع الخزافون الجرار الكبيرة لحفظ الحبوب والزيوت، والأواني الصغيرة للطعام والشراب، ثم زينوها أحيانًا بخطوط وأشكال هندسية بسيطة تعكس ذوق ذلك العصر. وبرع الصاغة في تشكيل الذهب والفضة والأحجار الكريمة. وقد كشفت المقبرة الملكية في أور عن عقود وأقراط وتيجان دقيقة الصنع، حتى إن بعض الباحثين وصفوها بأنها من أجمل ما أُنتج في العالم القديم.

ولم يقتصر الإبداع على المعادن، بل امتد إلى النسيج. فقد عُرفت سومر بصناعة الأقمشة الصوفية، وكانت بعض الورش تضم عشرات النساجين الذين يعملون معًا لإنتاج الملابس والأقمشة التي استُخدمت محليًا أو صُدّرت إلى مناطق أخرى.

ومن الصناعات التي تميز بها السومريون أيضًا الأختام الأسطوانية. وهي قطع حجرية صغيرة تُنقش عليها مشاهد دقيقة لآلهة، أو ملوك، أو حيوانات، ثم تُدحرج فوق الطين الرطب فتترك نقشًا متصلًا يشبه التوقيع الشخصي.

ولم تكن هذه الأختام للزينة فقط، بل استُخدمت لإغلاق المخازن، وختم العقود، وإثبات هوية أصحابها، ولذلك يعدها المؤرخون من أقدم وسائل التوثيق الإداري في التاريخ.

وعندما ينظر علماء الآثار اليوم إلى تلك الأدوات، لا يرون فيها مجرد مصنوعات قديمة، بل يرون أيدي أناس عاشوا قبل آلاف السنين، عملوا بصبر ودقة، وتركوا خلفهم شواهد تثبت أن الحضارة لا يصنعها الملوك وحدهم، بل يبنيها أيضًا الحرفيون المجهولون الذين نادرًا ما حفظ التاريخ أسماءهم.

المرأة في الحضارة السومرية أكثر من مجرد ربة منزل

عندما يقرأ الإنسان عن الحضارات القديمة، قد يتخيل أن دور المرأة كان يقتصر على إدارة شؤون المنزل، لكن النصوص السومرية تكشف صورة أكثر تنوعًا. فقد شاركت المرأة في كثير من جوانب الحياة، واختلف دورها باختلاف مكانتها الاجتماعية وظروف أسرتها.

كانت تدير المنزل، وتربي الأطفال، وتشارك في إعداد الطعام وصناعة الأقمشة، لكن بعض النساء عملن أيضًا في الزراعة، وساعدن أزواجهن في الحقول ورعاية الماشية.

وتشير العقود المسمارية إلى أن المرأة كان بإمكانها امتلاك الأراضي والمنازل، وشراء الممتلكات وبيعها، وإبرام العقود، كما ورثت من أسرتها في بعض الحالات وفقًا للأعراف السائدة آنذاك.

ولم يقتصر حضورها على الحياة الاقتصادية، بل وصلت بعض النساء إلى مناصب دينية رفيعة، إذ عملن كاهنات في المعابد، وكان لبعضهن نفوذ واسع، خاصة في المعابد الكبرى التي أدارت الأراضي والورش والعمال.

كما عُرفت بعض النساء بعملهن في الغزل والنسيج، وهي صناعة كانت من أهم موارد الاقتصاد السومري. وكانت الورش الكبيرة تضم عددًا كبيرًا من العاملات اللواتي أنتجن الأقمشة التي اشتهرت بها مدن سومر.

وتكشف لنا المقبرة الملكية في أور عن جانب آخر من حياة النساء. فقد عُثر في قبر الملكة بوابي على تاج ذهبي رائع، وعقود من الذهب واللازورد والعقيق، وأقراط وأمشاط وأدوات تجميل، مما يدل على المكانة الرفيعة التي تمتعت بها، وعلى الذوق الفني الذي بلغته صناعة الحلي في ذلك العصر.

وكانت النساء يعتنين بمظهرهن، فاستخدمن الحلي، والعطور، وأدوات التجميل البسيطة، وصففن شعورهن بطرائق مختلفة، وهو ما يظهر بوضوح في التماثيل والأختام التي عُثر عليها.

ومع ذلك، لم تكن جميع النساء يعشن الحياة نفسها. فقد اختلفت حقوق المرأة وواجباتها بين أسرة وأخرى، وبين المدينة والريف، وبين المرأة

الثرية والفقيرة. ولذلك لا يمكن الحديث عن نموذج واحد يمثل جميع نساء سومر. ورغم أن المجتمع السومري كان مجتمعًا يقوده الرجال في كثير من شؤونه، فإن المرأة تركت أثرًا واضحًا في الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية، وتشهد على ذلك النصوص والعقود والآثار التي ما زالت تروي جانبًا من قصتها حتى اليوم.

النظام الستيني لماذا ما زالت الساعة سومرية حتى اليوم؟

انظر إلى ساعتك الآن ستجد أن الدقيقة تتكون من ٦٠ ثانية، وأن الساعة تتكون من ٦٠ دقيقة وقد يبدو هذا أمرًا طبيعيًا، لكنه في الحقيقة إرثٌ عمره آلاف السنين، يعود إلى حضارة سومر.

فبينما تعتمد معظم أنظمة العد الحديثة على الرقم ١٠، اختار السومريون نظامًا مختلفًا يعتمد على العدد ٦٠. ولم يكن اختيارهم عشوائيًا.

فالعدد ٦٠ يتميز بأنه يقبل القسمة على أعداد كثيرة، مثل ٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و١٠ و١٢ و١٥ و٢٠ و٣٠، مما جعل إجراء الحسابات اليومية أسهل بكثير، خاصة عند تقسيم الأراضي، أو توزيع الحبوب، أو حساب أجور العمال، أو تسجيل كميات البضائع.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف كانوا يعدّون؟

تشير إحدى الفرضيات التي يتبناها عدد من الباحثين إلى أنهم كانوا يستخدمون أصابع اليد بطريقة ذكية؛ إذ يعدون بعظمة الإبهام سلاميات الأصابع الأربع الأخرى، فيحصلون على ١٢ في اليد الواحدة، ثم يستخدمون أصابع اليد الثانية لعدّ خمس مجموعات من الاثني عشر، فيكون الناتج ٦٠.

ورغم أن هذه الفرضية لا تثبت أنها كانت الطريقة الوحيدة، فإنها تقدم تفسيرًا منطقيًا لانتشار هذا النظام في بلاد الرافدين.

ولم يقتصر استخدام النظام الستيني على التجارة.

فقد استُخدم في قياس الأراضي، وحساب أطوال القنوات، وتسجيل المحاصيل، كما أصبح أساسًا للحسابات الفلكية التي طورها علماء بلاد الرافدين في العصور اللاحقة.

ومن خلال هذا النظام قُسمت الدائرة إلى ٣٦٠ درجة، وهو رقم يساوي ستة أضعاف العدد ٦٠، وما زال هذا التقسيم مستخدمًا في الرياضيات، والهندسة، ورسم الخرائط، والملاحة، حتى يومنا هذا.

وعندما ورث البابليون علوم السومريين، حافظوا على هذا النظام وطوروه، ثم انتقل عبر الحضارات إلى الإغريق، ومنهم إلى العالم بأسره.

ولهذا، ففي كل مرة تنظر فيها إلى الساعة، أو تحدد زاوية في دائرة، فإنك تستخدم فكرة وُلدت قبل أكثر من خمسة آلاف عام على ضفاف دجلة والفرات. وربما لم يكن السومريون يتخيلون أن اختراعهم سيبقى حيًا كل هذا الزمن، لكنه ما زال ينظم دقائق حياتنا حتى اليوم.

الطب عند السومريين بين الدواء والدعاء

لو مرض أحد سكان سومر قبل أربعة آلاف عام، فلن يتجه دائمًا إلى الشخص نفسه فقد كان في المجتمع السومري نوعان من المعالجين، لكل واحد منهما دور مختلف. الأول كان يُعرف باسم الآزو، وهو الطبيب الذي يعتمد على الخبرة العملية. يفحص المريض، ويعالج الجروح، ويحضر الأدوية من النباتات والمعادن والزيوت.

أما الثاني فكان يُعرف باسم الآشيبو، وهو الكاهن المعالج، الذي كان يعتقد أن بعض الأمراض سببها غضب الآلهة أو الأرواح الشريرة، فيقرأ الأدعية ويؤدي الطقوس الدينية لطرد الشر.

وقد يبدو هذا غريبًا اليوم، لكن السومريين لم يروا أي تعارض بين الطريقتين، فكان المريض قد يتناول الدواء، وفي الوقت نفسه يطلب البركة من الآلهة.

وقد عثر علماء الآثار على ألواح طينية تضم وصفات طبية مكتوبة بالخط المسماري، وهي من أقدم الوصفات الطبية المعروفة في التاريخ.

وتذكر هذه الألواح مكونات مثل التمر، والملح، والخردل، والزعتر، والآس، وأوراق بعض النباتات، إضافة إلى الزيوت النباتية، والحليب، والجعة، والعسل في بعض الخلطات، وكانت تُطحن أو تُغلى أو تُخلط لصنع مراهم أو مشروبات علاجية.

ولم يكن الطبيب يكتب الوصفة عشوائيًا، بل كان يبدأ بملاحظة أعراض المريض. فيسجل مثلًا إن كان يعاني من الحمى، أو السعال، أو آلام البطن، أو تورم أحد الأعضاء، ثم يختار العلاج المناسب وفق ما تعلمه من خبرته ومن النصوص الطبية.

وتشير بعض النصوص أيضًا إلى أنهم عرفوا تنظيف الجروح وتضميدها، واستعملوا الضمادات المصنوعة من القماش، كما عالجوا الكسور بتثبيت الأطراف المصابة، وهو ما يدل على معرفة عملية تراكمت عبر أجيال طويلة.

لكن الطب السومري لم يكن خاليًا من المعتقدات الدينية. فإذا عجز الطبيب عن تفسير المرض، أو طال أمده، اعتقد بعض الناس أن سببه قوة خفية، فيلجؤون إلى الكاهن الذي يتلو الأدعية ويستخدم التمائم طلبًا للشفاء.

واللافت أن كثيرًا من الوصفات الطبية لم تذكر أسماء الآلهة، بل ركزت على مكونات العلاج وطريقة تحضيره، وهو ما دفع عددًا من الباحثين إلى الاعتقاد بأن الأطباء السومريين حاولوا، في حدود معارف عصرهم، الاعتماد على الملاحظة والتجربة، لا على الطقوس وحدها.

ورغم أن علوم الطب تطورت كثيرًا منذ ذلك الحين، فإن تلك الألواح الطينية تكشف أن الإنسان بدأ يبحث عن أسباب المرض ووسائل علاجه منذ فجر الحضارة، وأن الرغبة في شفاء المريض كانت واحدة من أقدم صور الرحمة التي عرفها البشر.

المدرسة السومرية عندما كان الواجب يُكتب على الطين

لو عاد بك الزمن أربعة آلاف عام، ودخلت إحدى مدارس مدينة نفر أو أور، فلن تجد دفاتر ورقية، ولا أقلام حبر، ولا سبورة كما نعرفها اليوم.

بدلًا من ذلك، سترى ألواحًا من الطين الرطب، وقصبًا بريًا قُطع طرفه بطريقة خاصة، ليصبح أداة للكتابة.

وكانت المدرسة تُعرف عند السومريين باسم "بيت الألواح"، لأنها المكان الذي يتعلم فيه الطلاب الكتابة على الألواح الطينية.

ولم يكن التعلم سهلًا ففي البداية، كان المعلم يكتب الكلمات على اللوح، ثم يطلب من التلميذ أن ينسخها مرارًا حتى يتقن رسم العلامات المسمارية.

وقد عثر علماء الآثار على ألواح مدرسية كثيرة، يظهر في أحد وجهيها نموذج كتبه المعلم، بينما يحمل الوجه الآخر محاولة التلميذ لتقليده، وكأنها دفاتر واجبات بقيت محفوظة آلاف السنين.

ولم يقتصر التعليم على الكتابة وحدها، بل درس التلاميذ الحساب، وقياس المساحات، وتسجيل المحاصيل، وصيغ العقود، وقوائم الكلمات باللغتين السومرية والأكدية في الفترات اللاحقة، لأن الكاتب كان يحتاج إلى هذه المهارات في حياته العملية.

وتشير بعض النصوص الأدبية السومرية إلى أن الانضباط داخل المدرسة كان صارمًا. فإذا أهمل التلميذ درسه أو تأخر عن الحضور، تعرض للعقاب من معلمه، وهو ما يذكرنا بأن الدراسة لم تكن سهلة حتى في أقدم مدارس التاريخ والطريف أن بعض الألواح التي وصلت إلينا تحمل أخطاءً إملائية أو تصحيحات كتبها المعلم، مما يعني أن أخطاء الطلاب ليست اختراعًا حديثًا، بل رافقت التعليم منذ آلاف السنين.

ولولا هؤلاء الكتبة، لما وصلت إلينا أخبار الملوك، ولا الأساطير، ولا العقود، ولا الرسائل، ولا حتى الوصفات الطبية التي تعرفنا إليها اليوم.

ولهذا، لم يكن الكاتب في سومر مجرد شخص يجيد الكتابة، بل كان حافظ ذاكرة الحضارة، والرجل الذي نقل صوت عصره إلى الأجيال التي جاءت بعده.

العدالة في سومر عندما كان القانون يُكتب على الطين

إذا نشب خلاف بين شخصين في إحدى مدن سومر، لم يكن الحل دائمًا بالقوة أو الثأر بل كان كثير من النزاعات يُعرض على القضاة، الذين

يستمعون إلى الطرفين، ويفحصون الأدلة، ثم يصدرون حكمهم وفق القوانين والأعراف السائدة.

وكانت جلسات القضاء تُعقد غالبًا قرب المعابد أو في المباني الإدارية، بحضور الشهود، لأن الشهادة كانت من أهم وسائل إثبات الحق.

ولم يكن يكفي أن يدّعي شخص ملكية أرض أو منزل، بل كان عليه أن يقدم عقدًا طينيًا مختومًا، أو يستعين بشهود يؤكدون صحة كلامه.

وقد عثر علماء الآثار على مئات العقود القانونية المكتوبة بالخط المسماري، تناولت بيع الأراضي، وتأجير الحقول، والزواج، والطلاق، والتبني، والديون، وتقسيم الميراث، مما يدل على أن حياة الناس كانت منظمة بقواعد واضحة، لا بمجرد العادات.

ومن المثير للاهتمام أن بعض العقود كانت تُختم بالأختام الأسطوانية الخاصة بأصحابها، ثم تُشهد من عدة أشخاص، في خطوة تشبه اليوم التوقيع أمام الشهود أو توثيق العقود لدى الجهات الرسمية.

وكان القاضي يتحمل مسؤولية كبيرة، لأن الحكم الخاطئ قد يثير نزاعًا جديدًا داخل المدينة. ولهذا كان اختيار القضاة يتم من بين أصحاب الخبرة والمكانة.

ورغم أن القوانين السومرية لم تصلنا كاملة، فإن أقدم مجموعة قوانين معروفة حتى الآن هي شريعة أور نمو، التي وُضعت في مدينة أور نحو عام ٢١٠٠ قبل الميلاد، أي قبل شريعة حمورابي بما يقارب ثلاثة قرون.

ومن اللافت أن كثيرًا من موادها اعتمدت على الغرامات المالية في بعض الجرائم، بدلًا من العقوبات الجسدية، وهو ما يبين أن مفهوم العقوبة لم يكن دائمًا قائمًا على الانتقام، بل على تعويض الضرر في حالات معينة.

وقد تعرضت ألواح شريعة أور نمو للكسر عبر الزمن، لذلك فُقدت بعض موادها، لكن ما بقي منها يكشف أن السومريين كانوا يسعون إلى تنظيم المجتمع بقوانين مكتوبة، بدلًا من ترك الناس يحكمون وفق القوة وحدها.

ولهذا، عندما نقرأ اليوم عن المحاكم، والعقود، والشهود، والقوانين المكتوبة، فإننا نرى امتدادًا لفكرة بدأت تتشكل في مدن سومر قبل أكثر من أربعة آلاف عام، عندما آمن الإنسان بأن العدالة تحتاج إلى قانون يحفظها، لا إلى القوة وحدها

الرواتب في سومر هل كان الناس يتقاضون المال؟

لو سألت أحد سكان سومر عن راتبه، فمن المحتمل أنه لن يخرج من جيبه قطعة نقدية، لأن النقود المعدنية لم تكن قد اختُرعت بعد.

فكيف كان الناس يتقاضون أجورهم؟

كان معظم العمال يتقاضون مستحقاتهم على شكل حصص عينية، مثل الشعير، والزيت، والصوف، والتمر، وأحيانًا الجعة، التي كانت من المشروبات اليومية في ذلك العصر.

وقد كشفت آلاف الألواح المسمارية عن سجلات دقيقة، دوّن فيها الكتبة أسماء العمال، وعدد أيام عملهم، ومقدار ما استحقه كل واحد منهم وفي بعض هذه الألواح نجد قوائم طويلة، يسجل الكاتب فيها اسم العامل، ثم يكتب أمامه كمية الشعير أو الزيت التي تسلمها، وكأننا أمام كشف رواتب حديث، لكن مكتوب على الطين بدل الورق.

وكانت الأجور تختلف بحسب نوع العمل فالعامل العادي لا يحصل على ما يحصل عليه الحرفي الماهر، والكاهن ليس كالفلاح، والمشرف على العمال يتقاضى أكثر ممن يعمل تحت إمرته.

كما كانت النساء العاملات والأطفال الذين يؤدون بعض الأعمال يتقاضون حصصًا تتناسب مع طبيعة عملهم، وهو ما تكشفه السجلات الاقتصادية التي وصلت إلينا.

ولم تقتصر هذه السجلات على الرواتب، بل شملت أيضًا مخازن الحبوب، وعدد رؤوس الماشية، وكميات الصوف، وحتى الأدوات التي تدخل إلى الورش أو تخرج منها.

وكان كل شيء يُسجل بدقة، لأن أي خطأ في الحساب قد يعني أن أسرة كاملة لن تحصل على حصتها من الغذاء.

ومن المدهش أن بعض الألواح تحمل تصحيحات أجراها الكاتب بعد اكتشاف خطأ في الحساب، مما يدل على أن المراجعة والتدقيق كانت جزءًا من العمل الإداري حتى في ذلك الزمن البعيد.

وهكذا، لم تكن الكتابة في سومر وسيلة لحفظ القصص والأساطير فقط، بل كانت العمود الفقري للاقتصاد والإدارة، ولولاها لما استطاعت المدن الكبرى إدارة آلاف العمال، ومراقبة مخازنها، وتنظيم مواردها بهذه الدقة.

ولعل أكثر ما يثير الدهشة أن فكرة سجل الرواتب، التي نعدها اليوم أمرًا بديهيًا في المؤسسات، كانت موجودة في بلاد الرافدين قبل أكثر من أربعة آلاف عام، ولكن على ألواح من الطين

لعبة أور الملكية تسلية عبرت آلاف السنين

عندما اكتشف علماء الآثار المقبرة الملكية في مدينة أور، عثروا بين الكنوز الذهبية والقيثارات المزخرفة على شيء بدا للوهلة الأولى مجرد لوحة صغيرة مزينة بالأصداف والأحجار الكريمة لكنها لم تكن قطعة للزينة.

لقد كانت إحدى أقدم الألعاب اللوحية في تاريخ البشرية.

أطلق عليها الباحثون اسم لعبة أور الملكية، نسبة إلى المدينة التي اكتُشفت فيها، ويُقدر عمرها بنحو أربعة آلاف وستمئة عام.

تتكون اللعبة من لوحة مستطيلة مقسمة إلى مربعات، بعضها يحمل زخارف على شكل وردات. وكان لكل لاعب مجموعة من القطع يحركها على اللوحة وفق نتائج رمي النرد أو أحجار خاصة تحدد عدد الخطوات.

ولسنوات طويلة، عرف العلماء شكل اللعبة، لكنهم لم يعرفوا قوانينها.

وبقي السؤال مطروحًا كيف كان السومريون يلعبونها؟

وجاءت المفاجأة بعد اكتشاف لوح مسماري بابلي كُتب بعد اختراع اللعبة بقرون، يشرح جزءًا من قواعدها. وبمقارنة هذا اللوح مع اللوحات المكتشفة، تمكن الباحثون من إعادة بناء طريقة اللعب بصورة قريبة جدًا من الأصل.

واليوم، يستطيع أي شخص أن يصنع نسخة من اللعبة ويلعبها، مستخدمًا القواعد التي استخلصها الباحثون من تلك النصوص القديمة.

ولا يعرف المؤرخون على وجه اليقين إن كانت اللعبة تعتمد على التخطيط وحده أم على الحظ أيضًا، لكن يبدو أنها جمعت بين الأمرين، وهو ما جعلها ممتعة ومليئة بالمفاجآت.

ولم تكن اللعبة حكرًا على الملوك، فقد عُثر على نسخ أبسط منها في أماكن أخرى، مما يشير إلى أنها انتشرت بين فئات مختلفة من المجتمع، وإن اختلفت جودة المواد التي صُنعت منها.

والأكثر إثارة أن هذه اللعبة لم تبقَ محصورة في سومر، بل انتقلت إلى مناطق أخرى من الشرق الأدنى، واستمرت تُلعب لقرون طويلة، قبل أن تختفي تدريجيًا مع ظهور ألعاب جديدة.

وعندما ينظر الإنسان اليوم إلى لوحة لعبة أور الملكية، يصعب عليه ألا يتخيل مشهدًا بسيطًا قبل آلاف السنين شخصان يجلسان في فناء منزل أو في ساحة معبد، يتبادلان الضحكات، ويتنافسان في لعبة، دون أن يتوقعا أن لعبتهما ستبقى معروفة بعد آلاف السنين، وأن أناسًا في القرن الحادي والعشرين سيحاولون لعبها من جديد.

وهكذا تكشف لنا الآثار حقيقة جميلة؛ فمهما اختلفت الأزمنة، بقي الإنسان يبحث عن لحظات من التسلية، تمامًا كما نفعل نحن اليوم.

موسيقى سومر

عندما عاد صوت قيثارة إلى الحياة بعد أربعة آلاف عام

قد يظن البعض أن موسيقى السومريين ضاعت إلى الأبد، لكن الآثار احتفظت بجزء من قصتها فعندما نقب علماء الآثار في المقبرة الملكية بمدينة أور في عشرينيات القرن الماضي، عثروا على مجموعة من الآلات الموسيقية، كان أشهرها قيثارة مزينة برأس ثور ذهبي، صُنعت من الخشب، وزُينت بالذهب والفضة واللازورد والأصداف، مما يدل على أنها لم تكن آلة عادية، بل قطعة فنية بالغة القيمة.

ولم تكن القيثارة وحدها. فقد عُثر أيضًا على قيثارات أصغر، وآلات وترية أخرى، إضافة إلى القربول والطبول والآلات الإيقاعية التي كانت ترافق الاحتفالات والطقوس الدينية.

لكن بقي سؤال حيّر الباحثين سنوات طويلة كيف كان صوت هذه الآلات؟

فالخشب تحلل بمرور الزمن، والأوتار اختفت تمامًا، ولم يبقَ سوى الأجزاء المعدنية والزخارف.

وللإجابة عن هذا السؤال، صنع باحثون وحرفيون نسخًا مطابقة تقريبًا للقيثارات اعتمادًا على القياسات الأصلية والمواد التي عُثر عليها، ثم ركبوا عليها أوتارًا جديدة، وحاولوا إعادة إنتاج النغمات التي يمكن أن تكون قريبة من الموسيقى السومرية.

ولا يستطيع أحد أن يجزم بأن الصوت مطابق تمامًا لما سمعه السومريون، لكن هذه المحاولات منحت العالم فكرة قريبة عن الموسيقى التي كانت تعزف في المعابد والقصور قبل آلاف السنين.

ومن النصوص المسمارية نعرف أن الموسيقى لم تكن للتسلية فقط، بل كانت جزءًا من الشعائر الدينية، ومرافقة للترانيم والاحتفالات، كما عُزفت في الولائم والمناسبات الملكية.

وتشير بعض الألواح إلى وجود موسيقيين محترفين ومغنين، بل إن بعضهم كان يعمل في خدمة المعابد أو القصور، مما يدل على أن الموسيقى كانت مهنة معترفًا بها، وليست مجرد هواية.

وما يثير الإعجاب أن حضارات بلاد الرافدين تركت أيضًا أقدم المحاولات المعروفة لتسجيل الألحان، ففي العصور اللاحقة دُونت نصوص موسيقية على ألواح مسمارية، وهو ما ساعد الباحثين على فهم بدايات التدوين الموسيقي في التاريخ.

ولعل أجمل ما في قصة القيثارة السومرية أن قطعة صامتة دُفنت مع أصحابها منذ آلاف السنين، استطاعت أن تلهم العلماء لإعادتها إلى الحياة،

لتذكرنا بأن الفن، مثل الكتابة، قادر على عبور الزمن، وأن نغمة وُلدت في سومر ما زالت تجد من يصغي إليها بعد آلاف السنين.

الجمال في سومر عندما أصبحت الزينة جزءًا من الحضارة

قد يظن البعض أن اهتمام الإنسان بمستحضرات التجميل والعطور أمر حديث، لكن الآثار السومرية تروي قصة مختلفة.

فقد كشفت الحفريات في مدينة أور ومدن أخرى عن أمشاط، ومرايا مصنوعة من النحاس المصقول، وملاقط، وأوعية صغيرة لحفظ الزيوت والعطور، وأدوات دقيقة استُخدمت في الزينة، مما يدل على أن العناية بالمظهر كانت جزءًا من الحياة اليومية، خاصة لدى الطبقات الميسورة.

وكان الرجال والنساء على حد سواء يستخدمون الزيوت النباتية للعناية بالشعر والجلد، لأن حرارة المناخ وجفاف الهواء كانا يسببان تشقق البشرة وجفاف الشعر.

أما العطور، فكانت تُحضر من النباتات والأزهار والأخشاب العطرية والراتنجات (صمغ طبيعي تفرزه الأشجار) التي استورد بعضها من مناطق بعيدة عبر طرق التجارة. وكانت هذه الزيوت العطرية تستعمل في المناسبات الدينية، والاحتفالات، كما استُخدمت في الحياة اليومية لدى الأثرياء. ومن أكثر ما يلفت انتباه علماء الآثار هو كثرة الحلي التي عُثر عليها في المقبرة الملكية في أور.

فقد ارتدت الملكة بوابي تاجًا مذهلًا صُنع من صفائح الذهب، وزُين بأوراق وأزهار ذهبية دقيقة، تتدلى منه خيوط من خرز اللازورد والعقيق والذهب. وعندما اكتُشف هذا التاج في عشرينيات القرن الماضي، عُدّ واحدًا من أروع نماذج صياغة الذهب في العالم القديم.

ولم يكن اختيار اللازورد مجرد تفضيل جمالي، بل لأنه كان حجرًا نادرًا وثمينًا، يُجلب من مناطق بعيدة جدًا، ويعكس مكانة من يرتديه. أما العقيق فكان محبوبًا بسبب ألوانه الدافئة وسهولة تشكيله، في حين كان الذهب رمزًا للثراء والسلطة.

وتشير بعض التماثيل والأختام إلى أن الرجال أيضًا اعتنوا بمظهرهم، فأطال بعضهم لحاهم ورتبوها بعناية، ولفوا شعورهم بطريقة منتظمة، وهو ما يدل على أن الأناقة لم تكن حكرًا على النساء.

ورغم أن أدواتهم كانت بسيطة مقارنة بما نملكه اليوم، فإنها تكشف أن الإنسان السومري لم يفكر في الطعام والعمل فقط، بل اهتم أيضًا بالجمال، والذوق، وإظهار المكانة الاجتماعية.

ولعل أجمل ما تكشفه هذه الآثار أن الرغبة في الظهور بمظهر حسن ليست عادة حديثة، بل شعور إنساني رافق البشر منذ فجر الحضارة، عندما كان الذهب واللازورد يزينان ملوك سومر وملكاتها قبل أكثر من خمسة آلاف عام.

البيت السومري كيف عاش الناس قبل خمسة آلاف عام؟

عندما يسمع الإنسان كلمة "بيت سومري"، قد يتخيل كوخًا بسيطًا من الطين، لكن الحفريات الأثرية كشفت عن صورة أكثر تطورًا.

كانت معظم البيوت تُبنى من قوالب اللبن المجففة تحت الشمس، لأن الحجر كان نادرًا في جنوب بلاد الرافدين. وكانت الجدران سميكة، لا لقوة البناء فقط، بل لأنها تساعد على إبقاء الداخل أبرد في الصيف وأدفأ في الشتاء، وهي فكرة ما زالت تُستخدم في بعض البيوت الطينية حتى اليوم.

ومن اللافت أن أغلب البيوت لم تكن تتجه نوافذها الكبيرة نحو الشارع، بل كانت تُبنى حول فناء داخلي مكشوف ولم يكن هذا التصميم صدفة.

فالفناء كان يسمح بدخول الضوء والهواء، ويوفر في الوقت نفسه خصوصية للأسرة، ويحميها من غبار الشوارع وضجيجها. وفي الأيام الحارة كانت العائلة تجلس فيه بعد غروب الشمس، عندما يصبح الجو أكثر اعتدالًا وكانت الغرف تُوزع حول هذا الفناء بحسب حاجة الأسرة. فهناك غرفة للنوم، وأخرى لحفظ الحبوب، ومكان لإعداد الطعام، بينما خُصص السطح في كثير من البيوت لتجفيف التمور أو الحبوب أو لنوم أفراد الأسرة في الليالي شديدة الحرارة.

وقد كشفت الحفريات أيضًا عن وجود أنابيب فخارية لتصريف مياه الأمطار والمياه المستعملة في بعض المنازل، وهو ما يدل على اهتمام السومريين بالنظافة وتنظيم المياه داخل المدن. بينما وُضعت الجرار الكبيرة في زوايا المنازل لتخزين الماء والزيت والحبوب. وكان الباب يُعد من أهم أجزاء المنزل، لذلك زُودت بعض الأبواب بأقفال خشبية بسيطة، في محاولة لحماية الممتلكات، وهو دليل على أن الناس اهتموا بالأمن والخصوصية منذ وقت مبكر. وتخبرنا هذه البيوت أن السومريين لم يبنوا مساكن تؤويهم فقط، بل صمموها لتلائم البيئة التي عاشوا فيها، فاستفادوا من الطين، والقصب، واتجاه الرياح، وسماكة الجدران، ليجعلوا حياتهم أكثر راحة في مناخ بلاد الرافدين القاسي.

وعندما يسير الزائر اليوم بين أطلال مدن سومر، قد لا يرى سوى جدران متهدمة، لكن تلك الجدران كانت يومًا ما بيوتًا امتلأت بأصوات الأطفال، ورائحة الخبز، وأحاديث العائلات، لتذكرنا بأن الحضارة لا تُقاس بالقصور وحدها، بل بالحياة اليومية للناس الذين صنعوها.

كيف كانوا يرسلون الرسائل؟ البريد قبل اختراع الورق

اليوم، لا يحتاج إرسال رسالة إلى أكثر من ثوانٍ قليلة. لكن قبل خمسة آلاف عام، كانت كل رسالة تبدأ بقطعة من الطين.

كان الكاتب يأخذ لوحًا صغيرًا من الطين الرطب، ثم يكتب عليه بالخط المسماري باستخدام قلم من القصب. وبعد الانتهاء، يُترك اللوح ليجف، أو يُشوى في النار إذا كانت الرسالة مهمة ويراد الاحتفاظ بها مدة طويلة.

لكن ماذا لو كانت الرسالة سرية؟

ابتكر السومريون، ثم طور أهل بلاد الرافدين من بعدهم، فكرة ذكية تشبه الظرف البريدي الذي نستخدمه اليوم.

فبعد كتابة الرسالة، كانوا يغطون اللوح بطبقة ثانية رقيقة من الطين، ثم يكتبون على هذه الطبقة الخارجية اسم المرسل إليه، ويختمونها بالختم الأسطواني. ولكي يقرأ الشخص الرسالة، كان عليه أن يكسر الغلاف الطيني الخارجي، بينما يبقى اللوح الأصلي في الداخل محفوظًا.

وقد عثر علماء الآثار على عدد من هذه الرسائل، وما زال بعضها محتفظًا بغلافه الطيني حتى اليوم، مما أتاح للباحثين دراسة الرسالة والغلاف معًا، وفهم الطريقة التي استُخدمت لحماية محتواها.

وكانت الرسائل تُنقل بواسطة أشخاص يسافرون بين المدن، أو مع القوافل التجارية، أو مع موظفي الدولة، بحسب طبيعة الرسالة وأهميتها.

ولم تكن جميع الرسائل موجهة إلى الملوك.

فقد وصلت إلينا رسائل تتحدث عن شراء بضائع، وتسليم محاصيل، وتسوية ديون، وإدارة أملاك، بل وحتى رسائل شخصية بين أفراد الأسرة، وهو ما يمنحنا لمحة نادرة عن الحياة اليومية في ذلك العصر.

ومن الطريف أن بعض الرسائل تحمل عبارات شكوى من تأخر تنفيذ أمر معين أو من عدم إرسال البضائع في موعدها، مما يثبت أن مشكلات التأخير في التسليم ليست وليدة العصر الحديث.

ولعل أكثر ما يثير الإعجاب أن هذه الرسائل لم تُكتب لتصبح آثارًا تعرض في المتاحف، بل كانت وسيلة تواصل عادية بين أشخاص عاشوا حياتهم اليومية، ثم حفظها الطين آلاف السنين، لتصل كلماتهم إلينا بعد أن اندثرت مدنهم بقرون طويلة.

عندما نظر السومريون إلى السماء بداية علم الفلك

في الليالي الصافية، بعيدًا عن أضواء المدن الحديثة، تبدو السماء مليئة بآلاف النجوم. وكانت هذه السماء نفسها هي الكتاب المفتوح الذي قرأه السومريون منذ أكثر من خمسة آلاف عام. لم تكن لديهم تلسكوبات، ولا مراصد ضخمة، لكنهم امتلكوا شيئًا لا يقل أهمية الصبر على المراقبة.

كان الكهنة والكتبة يصعدون إلى أعلى المعابد والزقورات، يراقبون حركة القمر والنجوم والكواكب، ويسجلون ما يشاهدونه على ألواح طينية عامًا بعد عام ومع مرور الزمن، أدركوا أن بعض الأجرام لا تبقى ثابتة مثل بقية النجوم، بل تتحرك في السماء، ولذلك ميزوا الكواكب عن النجوم الثابتة، حتى وإن لم يعرفوا طبيعتها الحقيقية.

وكان ظهور الهلال حدثًا بالغ الأهمية، لأن بداية الشهر الجديد كانت تعتمد على رؤيته. فإذا تأخر ظهور الهلال، تأخر معه بدء الشهر، وتغيرت

مواعيد الاحتفالات الدينية والأعمال المرتبطة بالتقويم ولهذا، لم تكن مراقبة السماء هواية، بل مسؤولية تؤثر في حياة المجتمع كله.

كما لاحظ السومريون أن بعض النجوم تظهر في أوقات محددة من السنة، فاستفادوا من ذلك في معرفة تعاقب الفصول، والاستعداد لمواسم الزراعة والحصاد.

ومع مرور القرون، جمع الكتبة آلاف الملاحظات، واستفادت منها الحضارات التي ورثت علوم سومر، ولا سيما الحضارة البابلية، التي طورت علم الفلك حتى أصبح من أكثر العلوم تقدمًا في العالم القديم.

ومن المهم أن نميز هنا بين علم الفلك والتنجيم.

فالسومريون سجلوا حركات الأجرام السماوية بدقة، وهذا يدخل في مجال الملاحظة العلمية، لكنهم اعتقدوا أيضًا أن بعض الظواهر السماوية قد تحمل رسائل أو إشارات من الآلهة، وهو ما يُعرف بالتنجيم.

وكان هذان الجانبان يسيران معًا في ذلك العصر، لأن الإنسان القديم لم يفصل بين العلم والدين بالطريقة التي نفعلها اليوم.

وعندما ينظر علماء الفلك المعاصرون إلى تلك الألواح، فإنهم لا يرون مجرد نصوص دينية، بل يشاهدون البدايات الأولى لتسجيل الظواهر السماوية بصورة منتظمة، وهي الخطوة التي مهدت الطريق لتطور علم الفلك في حضارات بلاد الرافدين اللاحقة.

ولهذا، لم يكن السومريون أول من رفع رأسه نحو السماء، لكنهم كانوا من أوائل الشعوب التي سجلت ما رأته، وحولت الملاحظة اليومية إلى معرفة تراكمت عبر الأجيال.

ماذا كان يحدث بعد الموت؟ رحلة الروح في اعتقاد السومريين

منذ أن بدأ الإنسان يدفن موتاه، بدأ يتساءل ماذا يحدث بعد الموت؟

ولم يكن السومريون استثناءً فقد اعتقدوا أن الإنسان، بعد وفاته، ينتقل إلى العالم السفلي، الذي أطلقوا عليه أسماء متعددة في نصوصهم، وكانوا يتصورونه عالمًا يقع في أعماق الأرض، تحكمه الإلهة إريشكيجال.

ولم يكن هذا العالم جنةً ينعم فيها الصالحون، ولا جحيمًا يُعذب فيه الأشرار كما تصوره بعض المعتقدات اللاحقة، بل كان مكانًا تذهب إليه جميع الأرواح تقريبًا، مهما اختلفت مكانة أصحابها في الحياة.

وتصف بعض النصوص السومرية الأرواح وهي تعيش هناك في عالم هادئ، لكنه كئيب، حيث لا تصل أشعة الشمس، ويكون الطعام والشراب محدودين، ولهذا كان الأحياء يحرصون على تقديم القرابين والطعام الرمزي لذكرى موتاهم، اعتقادًا منهم أن ذلك يعود بالنفع على أرواحهم.

وقد كشفت المقابر السومرية عن أوانٍ فخارية، وأسلحة، وحلي، وأدوات شخصية دُفنت مع أصحابها، مما يدل على أن الناس اعتقدوا أن الميت قد يحتاج إلى بعض هذه الأشياء في رحلته إلى العالم الآخر.

ومن أشهر الاكتشافات في هذا المجال المقبرة الملكية في أور، حيث عثر علماء الآثار على قبور غنية بالذهب والفضة واللازورد، إضافة إلى عربات، وآلات موسيقية، وأوانٍ ثمينة.

لكن الاكتشاف الأكثر إثارة للجدل كان وجود عدد من الخدم والحراس قرب بعض القبور الملكية وقد اعتقد علماء الآثار في البداية أنهم ضحوا بحياتهم ليرافقوا الملك أو الملكة بعد الموت، إلا أن الأبحاث الحديثة ما زالت تناقش

تفاصيل ما حدث، وتختلف الآراء حول الطريقة التي انتهت بها حياتهم، ولذلك يبقى هذا الموضوع محل دراسة بين المختصين.

وهذه نقطة مهمة، لأنها تذكرنا بأن علم الآثار لا يقدم دائمًا إجابات نهائية، بل تتغير بعض التفسيرات كلما ظهرت أدلة جديدة. ولم يكن خوف السومريين من الموت مختلفًا كثيرًا عن خوف الإنسان اليوم.

فكما نتساءل نحن عن المصير بعد الحياة، حاولوا هم أيضًا أن يجدوا إجابة، فنسجوا الأساطير، وبنوا المقابر، وكتبوا الأدعية، وتركوا لنا نصوصًا تكشف أن هذا السؤال رافق الإنسان منذ فجر التاريخ.

وربما لهذا السبب بقيت ملحمة كلكامش حية حتى اليوم؛ لأنها لم تكن تتحدث عن ملك يبحث عن المجد فقط، بل عن إنسان يبحث عن إجابة للسؤال الذي ما زال يشغل البشر حتى عصرنا

هل يستطيع الإنسان أن ينتصر على الموت؟

هل رسم السومريون أولى الخرائط؟

عندما نسمع كلمة خريطة، نتخيل ورقة حديثة أو شاشة هاتف تحدد لنا الطريق، لكن فكرة رسم الأماكن أقدم بكثير مما يتخيل معظم الناس.

فقد عثر علماء الآثار في بلاد الرافدين على ألواح طينية تحمل رسومات تمثل قنوات مائية، وحدود حقول، وأجزاء من المدن. ولم تكن هذه الرسومات جميلة من الناحية الفنية، لكنها كانت دقيقة بما يكفي لتحديد المواقع وبيان الملكيات وكانت الحاجة إلى هذه الخرائط عملية جدًا.

فعندما يفيض دجلة أو الفرات، قد تختفي الحدود الفاصلة بين الحقول، ويصبح من الصعب معرفة أين تنتهي أرض هذا المزارع وأين تبدأ أرض

جاره ولهذا كان الكتبة والمسّاحون يعيدون قياس الأراضي، ثم يرسمون مخططات بسيطة تساعد على حفظ الحقوق ومنع النزاعات.

وتشير بعض الألواح إلى قياسات دقيقة للأراضي، وهو ما يدل على أن المسّاحين استخدموا الحبال وأدوات القياس لتحديد الأطوال والمسافات، ثم سجلوا النتائج بالخط المسماري.

ولم تقتصر هذه الرسوم على الحقول، بل استُخدمت أيضًا في تخطيط القنوات المائية، لأن نجاح الزراعة كان يعتمد على وصول المياه إلى كل أرض في الوقت المناسب.

ومن أشهر القطع الأثرية في هذا المجال لوح بابلي متأخر يُعرف اليوم باسم خريطة العالم البابلية، وهو يعود إلى زمن لاحق للحضارة السومرية، لكنه يُظهر كيف تطورت فكرة رسم العالم في بلاد الرافدين عبر القرون، اعتمادًا على الأسس التي وضعها من سبقهم.

ولهذا، فمن الأدق أن نقول إن السومريين كانوا من أوائل الشعوب التي استخدمت الخرائط والمخططات العملية، بينما واصل البابليون تطوير هذا العلم في العصور اللاحقة.

وربما لم يكن المسّاح السومري يدرك أن الخطوط التي يرسمها على لوح من الطين ستكون بداية رحلة طويلة، انتهت بالأقمار الصناعية وأنظمة الملاحة التي تقودنا اليوم إلى أي مكان في العالم.

مكتبات سومر عندما كانت المعرفة تُحفظ على الطين

عندما نسمع كلمة مكتبة، نتخيل رفوفًا مليئة بالكتب، لكن في سومر كانت الصورة مختلفة تمامًا فالكتب لم تكن موجودة بعد، أما المعرفة فكانت تُحفظ على ألواح من الطين.

وفي المعابد والقصور والمدارس، كانت الألواح تُرتب بعناية داخل غرف خاصة، بحيث يسهل العثور عليها عند الحاجة. وقد ضمت هذه المجموعات نصوصًا دينية، وعقودًا تجارية، وسجلات للضرائب، وقوائم بأسماء الملوك، ووصفات طبية، وأمثالًا شعبية، وتمارين مدرسية، وحتى الأساطير التي ما زلنا نقرأها اليوم ولم يكن ترتيب الألواح عشوائيًا.

فقد كان الكاتب يكتب في نهاية بعض الألواح عبارة تدل على أنها جزء من سلسلة، مثل: "اللوح الثاني" أو "اللوح الثالث"، حتى يعرف القارئ ترتيب النص إذا كان طويلًا.

بل إن بعض الألواح كانت تحمل في آخرها السطر الأول من اللوح التالي، وهي طريقة ذكية تساعد على التأكد من أن السلسلة كاملة، وتشبه إلى حد ما ترقيم صفحات الكتب الحديثة.

وكانت الألواح الصغيرة تُحفظ داخل سلال أو صناديق خشبية، بينما توضع النصوص المهمة في أماكن أكثر أمانًا داخل المعابد أو المباني الإدارية.

وقد ساعد الطين، من حيث لا يقصد السومريون، على حفظ هذه المعرفة.

فالورق يحترق بسهولة، والجلد يتحلل مع الزمن، أما الألواح الطينية، فإذا تعرضت لحريق شديد، فإنها تتحول إلى فخار صلب، فيزداد بقاؤها، ولهذا نجت آلاف النصوص من الدمار، بينما اختفت مواد الكتابة في حضارات أخرى. ومن المفارقات أن بعض الحرائق التي دمرت المدن القديمة أصبحت سببًا في حفظ الوثائق بدل إتلافها، لأن النار حولت الطين الرطب إلى ألواح مشوية قاومت الزمن آلاف السنين.

ولولا هذه المصادفة، لما عرفنا اليوم شيئًا عن قوانين سومر، ولا عن ملوكها، ولا عن أساطيرها، ولا حتى عن الواجبات المدرسية التي كتبها

الأطفال. وهكذا، لم تكن مكتبات سومر تشبه مكتباتنا في شكلها، لكنها أدت الوظيفة نفسها حفظ المعرفة، ونقلها من جيل إلى جيل.

ولعل أعظم هدية قدمها الطين للبشرية أنه لم يحفظ المباني وحدها، بل حفظ أيضًا أفكار البشر، وأحلامهم، وأصواتهم، حتى وصلت إلينا بعد أكثر من خمسة آلاف عام.

الأختام الأسطوانية التوقيع الذي دار فوق الطين

قبل أن يوقع الإنسان باسمه على الورق، وقبل ظهور الأختام المطاطية بآلاف السنين، ابتكر السومريون وسيلة ذكية لإثبات الهوية وحماية الممتلكات. كانت هذه الوسيلة تُعرف باسم الختم الأسطواني.

وهو قطعة صغيرة من الحجر، لا يتجاوز طولها في الغالب بضعة سنتيمترات، تُثقب من الوسط ليُمرر فيها خيط، فيحملها صاحبها حول عنقه أو معصمه، وكأنها بطاقة تعريف لا تفارقه لكن سر هذا الختم لم يكن في شكله، بل في النقوش الدقيقة المحفورة عليه.

فقد كان الحرفيون ينقشون على سطحه مشاهد لآلهة، أو ملوك، أو حيوانات، أو طقوس دينية، أو حتى مناظر من الحياة اليومية. وكانت هذه النقوش تُحفر بالمقلوب، لأن الصورة لا تظهر بشكلها الصحيح إلا عند دحرجة الختم فوق الطين الرطب.

ولذلك، عندما يدحرج صاحب الختم أسطوانته على لوح طيني، تظهر أمامه لوحة كاملة، تمتد على طول الطين بخط واحد متصل، وكأنها لوحة فنية مصغرة. ولم يكن من السهل تقليد هذه الأختام.

فكل ختم كان يحمل تصميمًا يميزه عن غيره، ولهذا استُخدم لإثبات هوية صاحبه، وتوثيق العقود، وإغلاق المخازن والجرار، وحتى ختم الرسائل

الرسمية فإذا وصل وعاء حبوب مختوم، وعُثر على الختم مكسورًا، عرف صاحبه أن أحدًا فتحه قبل وصوله، وهي فكرة تشبه اليوم الأختام الأمنية التي توضع على الحاويات أو الطرود وقد صنع السومريون أختامهم من أحجار متنوعة، مثل الحجر الجيري، والديوريت، والسربنتين، وأحيانًا من أحجار شبه كريمة، وكان نقش ختم واحد يحتاج إلى مهارة وصبر كبيرين، لأن أي خطأ قد يفسد العمل كله.

واليوم يعتمد علماء الآثار على هذه الأختام لمعرفة الكثير عن أصحابها، فالنقوش تكشف أحيانًا وظيفة الشخص، أو الإله الذي يعبده، أو المكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها.

ولذلك لا تعد الأختام الأسطوانية مجرد أدوات إدارية، بل تُعد أيضًا أعمالًا فنية ووثائق تاريخية صامتة، استطاعت أن تحفظ أسماء أصحابها ورموز عصرهم بعد آلاف السنين.

ولعل أكثر ما يثير الدهشة أن قطعة حجر لا يتجاوز حجمها إصبع اليد، استطاعت أن تؤدي دور التوقيع، وبطاقة الهوية، وختم الأمان، والعمل الفني في وقت واحد.

العجلة الاختراع الذي غيّر العالم

تخيل أنك تريد نقل حمولة تزن مئات الكيلوغرامات، لكن لا توجد سيارات، ولا شاحنات، ولا حتى عربات كيف ستفعل ذلك؟

في البدايات، كان الإنسان يجر الأحمال على الأرض، أو يضعها فوق زلاجات خشبية، لكن هذه الطريقة كانت تحتاج إلى جهد هائل، خاصة عندما تكون الأرض طينية أو وعرة ثم ظهر اختراع بسيط في شكله، عظيم في أثره العجلة.

ولا يستطيع العلماء تحديد اسم الشخص الذي ابتكرها، لكن أقدم الأدلة على استخدامها ظهرت في بلاد الرافدين خلال الألف الرابع قبل الميلاد، وهي الفترة التي ازدهرت فيها المدن السومرية وكانت العجلات الأولى مختلفة عن عجلات اليوم.

فلم تكن تحتوي على أسلاك معدنية أو إطارات مطاطية، بل كانت تُصنع من ألواح خشبية سميكة تثبت معًا، ولذلك كانت ثقيلة، لكنها أحدثت ثورة في النقل وسرعان ما بدأت العربات تجرها الحمير البرية المستأنسة، ثم استخدمت لنقل الحبوب، والطوب، والأخشاب، والمنتجات الزراعية بين الحقول والمدن ولم يتوقف أثر العجلة عند النقل.

فقد استُخدمت أيضًا في صناعة الفخار، حيث طور الحرفيون دولاب الفخار، وهو قرص دائري يدور بسرعة، يساعد الخزاف على تشكيل الأواني بدقة وسرعة أكبر من العمل باليد وحدها.

وكان هذا التطور سببًا في إنتاج أعداد أكبر من الجرار والأكواب والأواني، وبجودة أفضل، وهو ما ساعد على ازدهار التجارة ومن المثير للاهتمام أن اختراعًا يبدو بسيطًا غيّر مجالات كثيرة في حياة الإنسان.

فالعربة سهلت التجارة، ودولاب الفخار طور الصناعة، ثم انتقلت فكرة العجلة إلى حضارات أخرى، وأصبحت أساسًا لعربات الحرب، والطواحين، والآلات، حتى وصلت في النهاية إلى السيارات والقطارات والطائرات التي تعتمد في كثير من أجزائها على المبدأ نفسه.

وربما لم يتخيل الحرفي الذي صنع أول عجلة خشبية أن فكرته سترافق البشرية آلاف السنين، وأن العالم الحديث، بكل وسائله المتطورة، ما زال يدور على الاختراع نفسه.

لكن من الإنصاف أن نذكر أن تطور العجلة لم يكن عمل شعب واحد فقط، بل أسهمت فيه حضارات متعددة عبر العصور، فكل جيل أضاف إليها تحسينات جديدة، حتى أصبحت بالشكل الذي نعرفه اليوم.

ماذا كانت تعني أسماء السومريين؟

اليوم يختار كثير من الآباء أسماء أبنائهم لأنها جميلة أو لأنها اسم أحد الأقارب، لكن عند السومريين كان الاسم يحمل معنى أعمق في كثير من الأحيان.

فقد اعتقد الناس أن الاسم ليس مجرد وسيلة للتمييز بين الأشخاص، بل قد يعبر عن أمنية، أو شكر للآلهة، أو حدث مهم رافق ولادة الطفل.

ولهذا نجد أن كثيرًا من الأسماء ارتبطت بالآلهة.

فعندما يولد طفل بعد سنوات من انتظار، قد يختار والداه اسمًا يشير إلى أن الإله منحهما هذه النعمة، بينما تحمل أسماء أخرى معاني مثل القوة، أو الحماية، أو طول العمر، أو طلب البركة.

ومن خلال قراءة آلاف الألواح المسمارية، لاحظ الباحثون أن الأسماء كانت أشبه بجمل قصيرة.

فبعضها يعني: "الإله منحني الحياة"، أو "الإله هو حمايتي"، أو "ليدم الإله الملك"، وهي معانٍ تكشف ما كان يشغل الناس في حياتهم اليومية.

ولم تكن أسماء الملوك استثناءً.

فالملك أور نمو يعني اسمه تقريبًا "رجل مدينة أور" أو "المنتمي إلى أور"، وهو اسم يعكس ارتباطه بالمدينة التي حكم منها.

أما اسم كلكامش، فما زال معناه الدقيق محل نقاش بين علماء اللغات القديمة، بسبب قدم اللغة السومرية وصعوبة تفسير بعض كلماتها، وقد طُرحت له عدة تفسيرات، لكن لا يوجد اتفاق نهائي على أحدها.

وهذه نقطة مهمة، لأنها تذكرنا بأن علم التاريخ لا يملك دائمًا جميع الإجابات، وأن بعض أسرار الحضارات القديمة ما زالت تنتظر من يفك رموزها ولم تقتصر الأسماء على البشر.

فحتى المدن كانت تحمل معاني، وأسماء المعابد والأنهار والقنوات لم تكن تُختار عشوائيًا، بل ارتبط كثير منها بوظيفة المكان أو بالإله الذي يحميه.

ولذلك، فإن الاسم في الحضارة السومرية لم يكن مجرد كلمة ينادي بها الناس بعضهم بعضًا، بل كان جزءًا من الهوية، ورسالة يتركها الآباء مع أبنائهم منذ لحظة الميلاد.

وعندما يقرأ الباحث اليوم اسمًا منقوشًا على لوح طيني عمره أكثر من أربعة آلاف عام، فإنه لا يقرأ حروفًا صامتة فقط، بل يقرأ أمنية أبٍ، أو دعاء أم، أو اعتقاد شعبٍ آمن بأن للاسم قوةً ومعنى.

إرث سومر الحضارة التي لم تمت

قد يظن الإنسان أن حضارة سومر انتهت عندما سقطت مدنها، لكن الحقيقة أن الحضارات لا تموت دائمًا بسقوط دولها ففي كثير من الأحيان، تموت الدولة وتبقى أفكارها وهذا ما حدث مع سومر.

فعندما برز الأكديون، ثم البابليون، ثم الآشوريون، لم يبدأوا من فراغ، بل ورثوا كثيرًا مما تركه السومريون، ثم أضافوا إليه وطوروه.

فالكتابة المسمارية التي وُلدت في سومر استمرت تُستخدم قرابة ثلاثة آلاف عام، وكتبت بها لغات عديدة، وأصبحت وسيلة لتسجيل التاريخ، والقوانين، والعلوم، والرسائل في أنحاء واسعة من الشرق الأدنى.

أما النظام الستيني، فما زال يعيش معنا حتى اليوم.

فكل ساعة نقسمها إلى ستين دقيقة، وكل دقيقة إلى ستين ثانية، وكل دائرة إلى ثلاثمئة وستين درجة، هي تذكير صامت بفكرة وُلدت على أرض سومر منذ آلاف السنين.

ومن مدارس سومر خرج الكتبة الذين حفظوا ذاكرة الحضارات، ومن قوانينها بدأت رحلة القانون المكتوب، ومن معابدها تطورت أنظمة الإدارة، ومن قنواتها تعلم الإنسان كيف ينظم المياه لخدمة الزراعة، ومن أساطيرها خرجت قصص أثرت في أدب الشعوب التي جاءت بعدها.

بل إن كثيرًا من الآلهة والأساطير السومرية لم تختفِ، وإنما تغيرت أسماؤها أو أدوارها عندما انتقلت إلى الحضارات الأكدية والبابلية والآشورية، وهو ما يبين أن الأفكار، مثل الأنهار، قد تغير مجراها، لكنها لا تتوقف عن الجريان.

وحتى اليوم، ما زال علماء الآثار يعثرون على ألواح جديدة مدفونة تحت الرمال، تحمل نصوصًا لم تُقرأ من قبل، مما يعني أن سومر، رغم مرور آلاف السنين، لم تكشف لنا جميع أسرارها بعد وربما لهذا السبب ما زالت هذه الحضارة تثير فضول الباحثين في أنحاء العالم.

فهي لم تقدم للبشرية اختراعًا واحدًا أو إنجازًا واحدًا، بل ساهمت في وضع أسس كثيرة قامت عليها حضارات لاحقة، حتى أصبح من الصعب أن ندرس تاريخ الشرق القديم دون أن نبدأ من سومر.

وعندما ننهي الحديث عن السومريين، لا نغلق كتابهم، بل نقلب صفحة منه فقط. ففي الشمال، وبين مدن كانت تتحدث اللغة الأكدية، ظهر رجل سيغير خريطة بلاد الرافدين إلى الأبد. تقول الروايات إنه لم يولد أميرًا، ولم يرث عرشًا، بل بدأت حياته في ظروف غامضة، قبل أن يصبح مؤسس أول إمبراطورية واسعة عرفها التاريخ. كان اسمه سرجون الأكدي.

رأيي الشخصي

بعد رحلة طويلة بين مدن سومر، وزقوراتها، وآلهتها، وأساطيرها، وملوكها، قد يظن القارئ أن هذه الحكايات ليست سوى خيال نسجه أناس عاشوا قبل آلاف السنين. لكن التوقف قليلًا أمامها يكشف صورة مختلفة تمامًا. لم يكن السومريون يروون الأساطير لمجرد التسلية، بل كانوا يحاولون فهم العالم والإجابة عن الأسئلة التي حيّرت الإنسان منذ بداية وجوده لماذا تشرق الشمس؟ لماذا يمرض الناس ويموتون؟ لماذا تفيض الأنهار أحيانًا وتجف أحيانًا أخرى؟ ولماذا تتغير حياة الإنسان بين الفرح والحزن، وبين الحب والحرب؟

ولأن المعرفة العلمية لم تكن قد تطورت بعد، صاغوا إجاباتهم بلغة الرمز والأسطورة. فجعلوا الشمس إلهًا للعدالة لأنها تكشف كل شيء، وربطوا المياه بالحكمة لأنها أصل الحياة، وجعلوا للعالم السفلي ملكة تحكم الموتى، وللأوبئة والحروب إلهًا يقود البشر إلى ذلك العالم. وحتى إنانا، التي جمعت بين الحب والحرب، لم تكن شخصية متناقضة، بل كانت تجسيدًا لقوتين رأى السومريون أنهما قادرتان على تغيير مصير الإنسان.

ومع مرور صفحات هذا الكتاب، يتضح أن الأساطير السومرية لم تكن قصصًا متفرقة، بل كانت بناءً فكريًا مترابطًا؛ فكل إله، وكل أسطورة، وكل

رمز كان يؤدي دورًا في تفسير الكون كما فهمه السومريون. ولهذا بقيت تلك الأساطير حية في الذاكرة الإنسانية، لا لأنها تقدم حقائق علمية، بل لأنها تكشف كيف كان الإنسان الأول يفكر، ويبحث، ويتأمل، ويحاول أن يمنح معنى لكل ما يراه حوله.

وربما يكون هذا هو أعظم ما تركته لنا الحضارة السومرية. فهي لم تمنح العالم الكتابة والمدن والقوانين الأولى فحسب، بل تركت أيضًا دليلًا على أن الإنسان، منذ فجر التاريخ، لم يكتفِ بأن يعيش الحياة، بل سعى إلى فهمها، وصاغ أسئلته الكبرى في قصص ما زالت تُقرأ حتى اليوم، لا لنصدقها حرفيًا، بل لنتأمل الحكمة الكامنة وراءها.

"المراجع المختارة"

مراجع عربية

طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (من أهم المراجع العربية، وخاصة عن سومر وأكد وبابل وآشور).

طه باقر ملحمة كلكامش (ترجمة ودراسة).

فراس السواح مغامرة العقل الأولى.

فراس السواح لغز عشتار.

خزعل الماجدي الميثولوجيا السومرية.

خزعل الماجدي تاريخ الحضارة السومرية.

خزعل الماجدي الديانة السومرية.

مراجع أجنبية

The Sumerians

History Begins at Sumer

The Ancient Near East

Ancient Iraq

The Oxford History of the Ancient Near East

The Electronic Text Corpus of Sumerian Literature ETCSL
قاعدة نصوص سومرية مترجمة.

مراجع أثرية ومتاحف

متحف العراق (بغداد).

The British Museum، خاصة مقتنيات أور والأختام الأسطوانية.

Penn Museum، لأنه يضم نتائج حفريات أور التي قادها ليونارد وولي.

The Oriental Institute.

الكاتبة أماني سليمان

سوريا محافظة الحسكة

مدينة القامشلي

مواليد ٢/٨/١٩٨٨

درست في كلية العلوم قسم الكيمياء

أول مؤلفاتها كتاب خواطر بعنوان همسات النسمات

الثاني كتاب خواطر بعنوان صدى الأفكار

الثالث رواية بعنوان يضمدها الأمل

الرابع كتاب خواطر بعنوان عندما تتحدث الروح

الخامس رواية بعنوان أرواح تتأرجح على كفوف السحر

السادس كتاب خواطر بعنوان يا حزني السعيد

السابع رواية بعنوان قبل أن يراها

الثامن قصة بعنوان وكانت الصدمة

التاسع رواية بعنوان ترتيب القدر

العاشر مسرحية بعنوان النبوءة

الحادي عشر كتاب خواطر بعنوان كِلانا يبحث عني

الثاني عشر رواية بعنوان حين تكلم الموت

الثالث عشر رواية بعنوان نالت مرادها

الرابع عشر رواية بعنوان سلام فوق رماد الماضي

الخامس عشر خواطر بعنوان انا امرأة لا يعبرها الزمن

السادس عشر خواطر بعنوان على مائدة الوجدان

السابع عشر سكتشات مسرحية بعنوان من رحم المعاناة

الثامن عشر مونولوجات مسرحية بعنوان القوة تنبع من الداخل

التاسع عشر مونولوجات مسرحية بعنوان أنا والحياة

العشرون مونولوجات مسرحية بعنوان علمتني الحياة

الحادي والعشرون رواية بعنوان لم نخرج سالمين

الثاني والعشرون مسرحية بعنوان مقهى النصائح المجّانية

الثالث والعشرون مسرحية غنائية بعنوان ساحة المطر

الرابع والعشرون مسرحية بعنوان مكتب تصليح القدر

الخامس و العشرون مسرحية بعنوان مقهى الرسائل غير المرسلة

السادس و العشرون مسرحية بعنوان شركة ضائعة بين القرارات

السابع و العشرون مسرحية غنائية بعنوان قناديل المنى

الثامن و العشرون خمس سكتشات مسرحية بعنوان مجرات مضيئة

التاسع و العشرون مسرحية بعنوان صندوق الاصوات القديمة

الثلاثون كتاب خواطر بعنوان مسافة نجاة

الحادي و الثلاثون كتاب خواطر بعنوان ألوان قلبي

الثاني و الثلاثون رواية بعنوان على هامش القرار

الثالث و الثلاثون مسرحية بعنوان يوميات عريس مفلس

الرابع و الثلاثون مسرحية بعنوان عريس بالغلط

الخامس و الثلاثون مسرحية مزاد العرسان

السادس و الثلاثون مسرحية يوم بدون تمثيل

السابع و الثلاثون مسرحية غلط بغلط

الثامن و الثلاثون قصة بعنوان أجساد من كلمات

التاسع والثلاثون مسرحية حلم ع السريع

الاربعون مسرحية غنائية للأطفال المدينة التي تضحك

الواحد و الاربعون مسرحية غنائية بعنوان مدينة تزهر حين نحب

الثاني و الاربعون مسرحية بعنوان كل الطرق تؤدي إلي

الثالث و الاربعون مسرحية بعنوان آخر بث

الرابع و الاربعون مسرحية بعنوان محكمة الضمير

الخامس و الاربعون مسرحية بعنوان العريس الضايع

السادس والاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بدون تجميل

السابع و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بقايا انسان

الثامن و الاربعون مسرحية بعنوان مدينة الكذب

التاسع و الاربعون مسرحية بعنوان معجب سبع نجوم

الخمسون مسرحية بعنوان الجلسة الأخيرة

الواحد و الخمسون كتاب خواطر بعنوان قيد من حرير

الثاني والخمسون كتاب بعنوان من المجد إلى الطين(١)الحضارة السومرية